بقلم: هدى مصطفى عبد الحميد

الأرض الغامضة

دار المعارف

الأرض الغامضة

أولادنا

٣٧

الأرض الغامضة

بقلم:
هدى مصطفى عبد الحميد



دار المعارف

الغلاف رسم :
هدى مصطفى عبد الحميد

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

إعداد فنى : أمانى والى

١

أشرقتْ شمس يونيو الساخنة ، وقد خيم صمتٌ غريبٌ على المنازل والشوارع والحارات الضيقة داخل مدينة الإسكندرية العتيقة ، فخلت الطرقات من المارة ، ورفعت الأسواق واختفى الباعة الجائلون ، وخلا الشاطئ من راغبى التمتع بالطقس الساحلى ، وإطفاء حرارة الهواء فى مياه البحر المتوسط ، التى ركدت أمواجها فى ذلك اليوم وكأنها تشارك إسكندريتها الحبيبة حزنها وقلقها .

جلس « **الشيخ الضرير** » وأمامه عدد من الصبية ، وقد أصر على إعطائهم درس اليوم قبل منحهم إجازة ، يعلم الله وحده متى تنتهى ، كان الشيخ شاردًا حزينًا ، وأمامه الصغار لا يدركون شيئًا مما يجرى حولهم ، وهزَّ الشيخُ رأسَه فى أسى ثم قال : والآن سنقول كلنا معًا يا لطيف مائة مرة ، علَّ الله يلطف بنا .

مالت « **زينب** » على أخيها « أصيل » تسأله : ماذا بالشيخ « صديق » اليوم ؟ ، إنه حزين ، دفعها « أصيل » فى ضيق ولم يجبها .

أنهى **الشيخ** الدرس مبكرًا على غير العادة ، ثم قال : أنتم فى مسامحة من الحضور ، حتى نرى عَمَّ تنجلى الغمة القادمة –ثم التفت إلى الصبى حامل لوح الإردواز ، كى يدون تاريخ اليوم قائلاً له : اكتب يا بنى : تم بإذن الله ، ثم اكتب التاريخ ، الجمعة الخامس عشر من المحرم لعام ألف ومائتين وثمانية للهجرة ، التاسع والعشرين من يونيو لعام ألف وسبعمائة وثمانية وتسعين ميلاديا ، والآن انصرفوا إلى منازلكم فورًا ، ولا تلعبوا فى الطرقات ، فالطريق من اليوم أصبح

خطرًا ، ويعلم الله ماقد يصيبنا جميعًا ، وانصرف الشيخ صديق يسرع في خطاه مستندًا إلى عصاه الغليظة يرتل ما تيسَّر له من الآيات ، ويتمتم في جزع يا لطيف – يا لطيف ، هرول الصبية مهللين ، عدا الكبار منهم ، فكانوا يدركون كل ما يجرى ، ويبتلعون خوفهم في صمت .



٢

كان « **أصيل** » يسير شاردًا حين اقْتَرَبَتْ منه « زينب » تقفز فى مرح تسأله : إلى أين أنت ذاهب ؟ خذنى معك .

قال لها « **أصيل** » : عودى إلى المنزل يا زينب ، أنت صغيرة لم تتعدَّى السادسة .

هتفت « **زينب** » : كلا ، أمى قالت لى أمس إنه عندما يختفى هلال المحرم سأكمل سبعة أعوام ، وستذبح لى البطة الكبيرة التى تربيها ، ثم سألته فى انبهار : هل صحيح أنك ستكمل بعد المولد مثل أعوامى السبعة مرتين ؟ وبدأت تعد الأعوام على أصابعها الصغيرة ثم قالت : أى أربعة عشر عاما ؟

زفر « **أصيل** » فى ضيق ثم قال لها : قلت لك عودى الآن للمنزل ، وإذا قابلت « عامر » أو « حامد » أو « عائشة » ، قولى لهم : إننى عند الشاطئ حتى صلاة الجمعة .

انصرفت الصغيرة فى حزن فى حين سار « أصيل » حتى وصل إلى شاطئ البحر ، فجلس إلى صخرة مرتفعة يتأمل أمواجه الهادئة من شدة الحرارة وقلة الرياح ، ظل يَحْدِقُ فى الأفق ، هل يراهم الآن يظهرون فى ذلك الأفق البعيد قادمين فى طريقهم إلى الشاطئ ؟ ، ارتعد جسده من الخوف ، لابد أن سفنهم الضخمة – التى سمع أخاه الكبير أحمد يحكى عنها – ستبدو كالوحوش البحرية المخيفة ، التى تخرج للفتيان وتهاجمهم فى حواديت جدته « صابرة » ، ولكن فى

الحواديت .كان الشاطر حسن يرفع سيفه المسحور ويقطع به رأس الوحش فى ضربة واحدة ، ترى هل تستطيع بندقية أحمد الحديدية الصغيرة أن تفعل هذا ؟ ، لقد رآه أمس ومعه أصدقاؤه وكانوا يعدون بنادقهم ويملئون الصناديق بالذخيرة ليتجهوا بعد صلاة الجمعة إلى الحصون ، ومعهم زادهم وعتادهم وكل ما يلزمهم ، فمن يدرى إلى متى ستستمر الحرب ؟ .

ظهر طائر بحرى أبيض يطير فوق صفحة المياه ، ربما مر هذا الطائر بسفنهم فى البحر وشاهدهم ، ترى كيف يكون شكل هؤلاء الفرنسيين ؟ ، ولماذا يحملون أسلحتهم وعشرات من سفنهم ، ويركبون البحر من بلادهم البعيدة لينقضوا على شعب مسالم لم يؤذهم فى شىء ؟ ، وامتلأ رأسه بآلاف الأسئلة ، ثم شعر بيد توضع على كتفه فانتفض بسرعة فإذا هو « عامر » يقول : ما الذى أتى بك إلى هنا ؟ .

شرد « **أصيل** » برهة ثم سأله : هل تصدق أنهم سيظهرون فى البحر خلال الساعات القادمة ؟ .

جلس « **عامر** » إلى جواره قائلاً : هل تصدق أنت أنهم ضخام كالمردة ولهم أنياب ومخالب ، تسكن الشياطين أجسادهم فترى فى عيونهم ألسنة لهب حمراء ؟ ، لقد سمعت صاحب المتجر اليونانى يقول هذا .

هز « **أصيل** » رأسه مستنكرًا ثم قال : هذه تخاريف ، هل تصدقها أنت ؟ .

عامر : ولم لا ! ، إننا لم نرهم من قبل ، إن بلادهم بعيدة خلف البحر ، وربما كانت عند بلاد الجن والعفاريت .

نظر إليه « **أصيل** » (في ضيق) قائلاً : أنت دائما كنت تهرب من درس الجغرافيا ، لذا فأنت جاهل بها ، إن بلاد الفرنسيين هى فرنسا ، وهى حقًا بعد البحر المتوسط ، ولكنها ليست عند بلاد الجن والعفاريت ، دعك من هذه الخزعبلات .

التفتا على صوت « عائشة » الرقيق ، كانت تلهث وكأنها آتية جريا ، قالت فى صوت مضطرب : ماذا تفعلان عند الشاطئ ؟ ، إن أمى ستضربك علقة ساخنة يا « عامر » ، وكذلك أمك يا « أصيل » ، إنهما قلقتان عليكما ، كيف تقتربان من الشاطئ فى هذه الأيام ؟ ألا تخافان من الوحوش القادمة عبر البحر ؟

نظر إليها **أصيل** شزرا ثم قال فى صوت متحمس : ليسوا وحوشًا ، إنهم بشر مثلنا ونستطيع أن نقاومهم .

صاحت « **عائشة** » : فلنتحدث هناك فى المنزل ، هيا – هيا ، ثم سالتهما فى قلق : أليس « حامد » معكما ؟ .

أجابها « **عامر** » : إنه مختبئ فى مخزن حانوت والده يخلط تلك المساحيق التى اشتراها من المجذوب بكل النقود التى ادخرها ، عندما قابلته بالأمس كان يرقص من السعادة ويقول : إنه توصل للخلطة التى تتفجر كنيزك ساقط من السماء ، وأنه سيصنعها بكمية كبيرة لنلقيها على سفن الفرنساوية حين يحضرون لمهاجمة بلادنا .

قالت « **عائشة** » (فى جزع) : إنه مجنون سيقتل نفسه .

أصيل : ولماذا لا يكون قد اخترع سلاحًا ينفجر كما يقول ؟ .

عامر : أنا قلق عليه ، هيا بنا نذهب إليه بالمخزن ، قام الولدان يسيران تتقدمهما « عائشة » التى كانت تسرع فى خطواتها قائلة : سأذهب إلى المنزل ، لا تتأخرا .



٣

كان حانوت « حسين » البقال والد « حامد » مغلقًا ككل الحوانيت الأخرى ، منذ وصلت أنباء الأسطول الفرنسى الضخم القادم عبر البحر لمهاجمة المصريين .

دارا حول الحانوت حتى وجدا الثغرة الضيقة التى ينفذ منها « حامد » لداخل الحانوت حينما يغلق والده الباب ، دخل « عامر » و« أصيل » ، كان الحانوت مظلمًا تمامًا ، وفى أحد الأركان ، كان ضوء ضعيف ينبعث من خلف باب المخزن الضيق ، دفعه الولدان ودخلا ، كان « حامد » جالسًا وبين يديه إناء فخارى صغير ، يمزج فيه بعض المحاليل بعصا صغيرة دقيقة بين أصابعه ، تهلل وجهه حين رأى « عامر » و« أصيل » ثم قال : أنا الذى سيخلص البلاد من الأعداء القادمين ، انظرا —فتح « حامد » قرطاسًا ورقيا مغلقًا بعناية ، ثم ألقى ما به فى داخل الآنية الفخارية انبعثت سحابة من الدخان سعل على أثرها الصبية الثلاثة .

صاح « **عامر** » : ما هذا ؟ ! اتركه وابتعد يا « حامد » اجر يا « أصيل » .

ألقى « **حامد** » الإناء وهرول الثلاثة خارج المخزن إلى أقصى الحانوت حيث عدة أجولة من الدقيق احتموا بها ، سمعوا صوت انفجار مكتوم أطاح بباب المخزن ، وانعدمت الرؤية لعدة دقائق ساد بعدها صمت مخيف .

قال « **حامد** » (فى نبرة متوجسة) : هل أنتما بخير ؟

أجاب « **عامر** » : نعم نحن بخير والحمد لله — وقف الثلاثة ينفضون عنهم الغبار وذرات الدقيق ثم تسللوا إلى المخزن ، ثم صاح « عامر » : انظرا ! ما هذا ؟

كان كل ما بالمخزن قد انقلب رأسًا على عقب ، وفى الأرض كانت فتحة واسعة مظلمة ، واقترب الثلاثة منها ينظرون بداخلها فى خوف ودهشة ، بدت لهم ثلاث درجات سلمية بيضاء ، عقدت المفاجأة ألسنتهم .

سأل « **أصيل** » « حامد » : هل لديكم حجرة أسفل المخزن ؟ ، هز « حامد » رأسه مجيبا بالنفى ثم قال فى دهشة : إنها أول مرة أعرف أن هناك حجرة سفلية فى هذا المكان .

قال « **عامر** » فى شغف : ترى ماذا بداخل هذه الحجرة ؟ .

قال « **حامد** » فى صوت تملؤه الإثارة : ربما كان هناك كنز مدفون بها .

قال **أصيل** : وربما كانت مقبرة .

ارتعدوا من هذه الفكرة ، قال « حامد » وكأنه يتحدث إلى نفسه بصوت مسموع : ماذا نفعل الآن ؟ .

قال « **عامر** » : ما رأيكم أن ننزل إلى هذه الحجرة لنجيب عن كل هذه الأسئلة .

فكر « **أصيل** » برهة ثم قال : هذا خطر ، فهذه المناطق تكون مسكونة بالعقارب والثعابين .

صاح « **عامر** » والجن والعفاريت .

« **حامد** » : هذا يعنى أننا يجب أن نغلقها ونرحل وننسى كل شيء عنها ، هل تستطيعون هذا ؟ ، أنا أعتقد أننى لن افكر بعد اليوم فى شيء إلا فيما تحتويه هذه الغرفة الغامضة .

قال « **عامر** » إذن فلنتوكل على الله وننزل .

تردد **أصيل** برهة ثم قال : فلنحضر مصباحًا .

هتف « **حامد** » هناك مصباح ضخم بالحانوت ، انتظرا برهة .

خرج « حامد » من المخزن مارًّا على الباب الملقى على الأرض إلى الحانوت ، ثم عاد ومعه مصباح زيتى ضخم مضيء قربه من الفتحة المظلمة بالأرض ثم صاح : إنه سلم طويل . يبدو أنه سرداب وليست حجرة .

قال « **أصيل** » : ترى إلى أين يؤدى ؟ ، مد « عامر » ساقيه إلى الدرجة الأولى قائلاً : سنعرف الآن ، وخلف « عامر » نزل « حامد » حاملاً المصباح ، وخلفه « أصيل » ، كان سلمًا طويلاً غائرًا فى الأرض إلى عمق بعيد .

قال « **عامر** » : إنه شديد الميل إلى الجنوب الشرقى ، أعتقد أننا الآن أسفل حانوت والدى ، وسمع الثلاثة فجأة صوت « عائشة » ينادى فى خوف عامر – أصيل – حامد – أين أنتم ؟ ، وصرخ صوت زينب : لقد اختطفتهم العفاريت تحت الأرض ، انظرى يا « عائشة » الأرض مشقوقة وابتلعتهم .

قال « أصيل » « لعامر » : إنها أختك « عائشة » يا عامر ، ومعها أختى « زينب » .

قال « حامد » : وما العمل الآن ، إنهما ستذهبان لإبلاغ الناس كلهم وسيمنعوننا من الخوض في هذا السرداب .

قال « أصيل » (في حسم) : إذن انتظراني برهة ، واستدار « أصيل » صاعدًا السلم حتى وصل إلى سطح المخزن ، صاحت « زينب » و« عائشة » : ما هذا ؟ ، وسألته « عائشة » (في خوف) : ما الذي يحدث ؟ ، لقد سمعنا صوت انفجار مكتوم حتى إن الأهالي ظنوا أن الفرنسيين قد وصلوا ، وتذكرتكم فحضرت لأبحث عنكم .

قال « أصيل » (في حدة) : هيا معي الآن ولنتحدث بأسفل .

صاحت عائشة » : إلى أين ؟ هل أنتم تحت الأرض ؟ وقفزت « زينب » وأمسكت بملابس « عائشة » — التي كانت تكبرها بثمانية أعوام — وكأنها تحتمي بها صائحة : لن أذهب عند العفاريت .

قال « أصيل » : لا توجد عفاريت يا « زينب » .

سألته « عائشة » : هل يمكن أن تشرح لي ما يحدث هنا ؟

أجابها « أصيل » : كان « حامد » يجرى تجاربه على اختراعه النيزكي ، فانفجرت المحاليل وأحدثت تلك الفجوة بالأرض ، ولما رأينا بداخلها سلما ، قررنا أن نعرف إلى أين يؤدى ذلك السلم ، ولمعت عينا « عائشة » ثم قالت : حسنًا ، سآتى معكم ولكن ماذا عن « زينب » ، إنها صغيرة ولا يجب أن تأتى معنا ، وصاح « أصيل » :

بل إنها يجب أن تأتى معنا ، لأنها صغيرة ولن تحفظ السر ، وستسارع بإبلاغ والدينا ، إنها أختى وأنا أعرفها جيدًا ، فنظرت « عائشة » إلى « زينب » برهة ثم سألتها : هل تأتين معنا يا « زينب » ؟ ، وشردت « زينب » فى خوف ، وصاح « عامر » من أسفل فى صوت مكتوم : هيا يا « أصيل » ، فهتف « أصيل » للفتاتين : هيا بنا هيا ، ونزل الثلاثة الدرج و« زينب » تلتصق « بعائشة » وتتلفت حولها فى خوف .

قالت « **عائشة** » : ما هذا هل هو سرداب سرى ؟ .

قرب « **حامد** » المصباح من الجدار الضيق ثم قال : انظروا توجد نقوش غريبة على الجدران ، يبدو أنه مكان أثرى ، وقال « عامر » - الذى كان يتقدم الطابور - سينتهى السلم بعد عدة درجات ، سأله « أصيل » : وماذا بعد ذلك ؟ ، رفع « حامد » المصباح لأعلى حيث أرتفع السقف بعض الشىء بعد أن انتهى السلم ، ثم وجد الخمسة أنهم يقفون فى مكان متسع غريب الشكل وكأنه ميدان صغير تتفرع منه عدة طرقات ضيقة ، وقفوا مبهورين ينظرون حولهم فى دهشة .

تمتم « **عامر** » (فى انبهار) : هل نحن فى مدينة تحت الأرض ؟ .

دار « **حامد** » فى المكان يتفقد تلك الطرقات المتشعبة ، وسألته « عائشة » : إلى أين تتجه الآن ؟ .

أجاب « **حامد** » : إن الطرقات كلها ضيقة ومهدمة وتغوص إلى أعمق من المستوى الذى نقف عليه الآن فيما عدا طريقًا واحدًا يبدو

أكثر اتساعًا ويمكننا أن نسير فيه ، واتجهوا للطريق الذى اشار إليه « حامد » متتابعين حتى دلفوا إليه .

هتف « **أصيل** » : انظروا .. إن على الجانبين أبوابًا ضيقة تؤدى لحجرات صغيرة أو حوانيت لا أدرى ، وصاحت « عائشة » : قرب المصباح بسرعة من هذه الحجرة على اليسار يا « حامد » ، فاقترب « حامد » بالمصباح حتى دخل إلى الحجرة ، صرخت « عائشة » و « زينب » بينما صاح « عامر » : من أنت ؟ هتف « حامد » : لا تخافوا – إنه تمثال .

اقترب الخمسة منه يتأملونه فى دهشة ، كان تمثالاً كبير الحجم لامرأة جالسة من الرخام الأبيض ، وعلى الأرض كانت توجد عدة تماثيل صغيرة وآنية فخارية جميلة الشكل ، صمت الجميع عدة دقائق وقد بهتوا بما يرون ، فقال « حامد » : أظننا فى أطلال مدينة رومانية قديمة دفنها الزمن تحت الأرض ، وقال « أصيل » : ولم لا تكون مدينة يونانية . كلها حضارات شهدتها أرض الإسكندرية على مر العصور .

كانوا يتأملون كل ما حولهم وكأنه قطعة من الماضى البعيد ، أو كأنهم فى حلم أسطورى لا يصدقون شيئًا منه ، وفجأة صاحت زينب : انظروا ! اقتربوا بسرعة إلى حيث أشارت « زينب » ، كانت تشير إلى حجرة أخرى مجاورة لهم قد امتلأت بالأوانى والسلال ، قرب « حامد » المصباح صاح « عامر » : إنه كنز – وجدت كنزًا ! كانت إحدى الأوانى الفخارية وقد امتلأت بالعملات الذهبية والنحاسية

مختلفة الأحجام ، فصاحت « زينب » : كنز – كنز وقال « أصيل » : يبدو أننا سنرى العجب فى هذا السرداب ، وأردف « حامد » : أجل ، ولذلك أرجح أن نكتشف باقى السرداب أولا ، هيا بنا ، وخرجوا من الحجرة إلى الممر مرة أخرى وبدءوا فى السير من جديد ، وقال « حامد » : ما هذا ؟ ! انظروا معى ، أليس هذا ضوء النهار ؟ ، فأجابه « أصيل » : إننى أراه واضحًا ولكنه لازال بعيدًا ، ويبدو وكأنه يصدر من أعلى السرداب ، وقالت « عائشة » : إذن هو مخرج آخر للسرداب ، فلنسر إلى حيث ينبعث هذا الضوء ونعرف مكان المخرج الآخر للسرداب ، وظلوا يسيرون فى اتجاه الضوء وهم يتجاذبون أطراف الحديث ، لم يفكر أحدهم يوما أن شفتيه ستنطقان به .

قال « **عامر** » : هل أصبحنا أثرياء بعد أن عثرنا على هذا الكنز ؟

أجاب « **أصيل** » : كلا يا « عامر » ، إنها آثار وهى من حق البلد كله ، كما أنها لا تقدر بثمن .

فقالت « **عائشة** » : إنك أكثرنا قراءة يا « حامد » ، ألا تعرف لأى عصر تنتمى هذه العملات ؟ .

أجابها « حامد » : عندما نعود إلى سطح الأرض سأذهب إلى منزل الشيخ « حجازى » خطيب الجامع ، لقد ذهبت إليه ذات مرة مع والدى ، ورأيت عنده مكتبة كبيرة ، سأذهب إليها وأبحث فيها عن الكتب التى تتحدث عن تاريخ مصر وأقرؤها جميعا حتى أعرف كل شيء عن هذا المكان وكل ما فيه .

قال « **عامر** » : لقد اقتربنا من الفتحة التى ينبعث منها الضوء .

صاح « **أصيل** » : هل تصدقون ، إنها البئر الجافة التى نراها فى أقصى السوق ، فصاح الجميع : غير معقول .

قال « عامر » : هل هذا يعنى أننا نسير أسفل السوق الآن ؟ .

أجابه « **حامد** » :أجل ، وربما كان هذا السرداب يمتد أسفل المدينة كلها إلى الجنوب من البحر .

تمتم « أصيل » : هذا شىء غير معقول ، واستطرد« حامد » : ألم أقل لكم ؟ ، ها هى ذى فتحة البئر أصبحت فوقنا مباشرة ، ومازال الطريق ممتدًّا فى اتجاه الْجنوب .

قال « **عامر** » : إننا على بعد سحيق من سطح الأرض ، فهذا البئر سمعت أن عمقه ثمانون قدما تقريبا .

قالت « **زينب** » : (فى ضيق) : لقد تعبت من السير فى هذا المكان المخنوق ، إننى أريد أن أعود .

قال « **أصيل** » : أرى أن نعود الآن قبل أن يشعر أحد بغيابنا ، ثم إن صلاة الجمعة قد بدأت ، ولذلك فإنهم منشغلون عنا ، ولكن ما إن تفرغ الصلاة حتى يبدءوا البحث عنا ، لنتعاهد جميعًا على أن نحفظ هذا السر حتى نقرر معًا ماذا نفعل ؟ وكيف نتصرف أتسمعين يا « زينب » ؟ ، فأومأت« زينب » برأسها بسرعة ، ثم بدءوا فى طريق العودة داخل السرداب الخفى .

٤

وقف خطيب الجامع المسن يلقى خطبة الجمعة فى انفعال شديد فى حين جلس أمامه المصلون ، تلهج خواطرهم بالدعاء لله أن يحفظ مصر من الأعداء ، وهتف الشيخ « حجازى » : يجب أن نكون يدًا واحدة ، وقد قال الله تعالى : ﴿كَم مِن فِئَةٍ قَليلةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرةً بإِذْنِ الله والله مَعَ الصَّابرينَ﴾ لا تخافوا ، لن ينالوا منا ، فمصر محمية من خالقها فلنستبسل فى الدفاع ونترك الباقى لله ولندع الله أن يحفظنا ويحفظ بلادنا ، وردد المصلون فى ضراعة : آمين — آمين .

وما إن انتهت الصلاة حتى كانت المدينة الصغيرة كخلية النحل ، كل من فيها يؤدى دوره فى جلد ، كان الشباب ينقلون صناديق الأسلحة وبراميل البارود إلى الحصون خلف الأسوار التى تحيط بالمدينة ، فى حين كان الخطيب المسن واقفًا يراقبهم ومسبحته بين أصابعه ترتعش من فرط الدعاء .

اقترب منه « حامد » و « عامر » ، نظر إليهما الشيخ برهة ثم سألهما : لماذا تخلفتما عن صلاة الجماعة اليوم ؟ ، ارتبك الصبيان ، قال عامر فى تردد : إن صديقنا « أصيل » محموم وكنا إلى جواره ، ونظر إليهما الشيخ « حجازى » فى شك ثم قال وهو مقطب جبينه : كان هذا أدعى لأن تحضرا الصلاة لتدعوا له بالشفاء ، فأسرع « حامد » يقول : إنها آخر مرة نتخلف فيها يا شيخ « حجازى » ، ثم أردف بسرعة ، إن لديك مكتبة كبيرة زاخرة بالكتب القيمة ، فهل فيها كتبا

تاريخية ؟ أم أنها كتب فى الدين والفقه فقط ؟ ، ونظر إليه الشيخ فى دهشة ثم أجابه : أجل ، لدى بعض الكتب التاريخية فماذا تريد ؟ .

قال « **حامد** » : نريد أن نعرف كل شىء عن تاريخ الإسكندرية منذ القدم .

قال لهما **الشيخ** (فى سماحة) : فلتحضرا إلى منزلى بعد صلاة العشاء وتبحثا عن الكتب التى تفيدكما فى مطلبكما ، والتفت الشيخ إلى جمع من الرجال كان قادمًا ثم هتف : إنه الشيخ « محمد كريم » . وانصرف فى اتجاهه فورًا .

ظل الولدان يراقبان الشيخ « محمد كريم » عن بعد ، وقد التف حوله الناس من عامة الشعب ومن الشباب المجند للدفاع عن الإسكندرية ، واقترب « أصيل » من « عامر » و « حامد » متسائلاً : ماذا هناك ؟ ! هتف « عامر » : اذهب من هنا ، لقد قلنا للشيخ إنك مريض ، فقال « أصيل » فى حماس : الشيخ « كريم » ؟ ! فليران الشيخ « حجازى » ، ولكننى يجب أن أرى السيد كريم وأسمع ماذا يقول ، هيا بنا .

اقترب الثلاثة من الحشد الكبير ، كان الشيخ « كريم » قد وقف وسطهم يرتدى عباءته الفضفاضة وعمامته المهيبة ، وقد زادت ذقنه البيضاء المسترسلة هيئته وقارًا ، وكان يصيح فى جموع الشعب الملتفة حوله هاتفًا : لقد وصلتنى رسالة من قائد الأسطول الفرنسى القادم إلينا ، ويدعى « نابليون بونابرت » ، بعثها إلى مع ملاح تركى أعتقد أنه يفضل مصالح الفرنسيين على مصالحنا ، أن قائدهم

يعطينى الأمان ويعدنى بأن يقينى فى منصبى كحاكم للإسكندرية ، على أن أساعده على النزول إلى شواطئنا فى سلام ، إنهم يريدون شراء ذمتى ، لا يدرون ماذا يعنى الوطن عندنا ، إننا سنقاوم لآخر قطرة فى دمائنا .

هتفت الجموع فى حماس : الله أكبر – الله أكبر ، استرسل « كريم » فى حديثه قائلاً : من الواضح أنهم قاربوا على الوصول إلى مياهنا ، لذا فيجب أن يلتزم الجنود ومعهم مدفعيتهم وبراميل البارود بأسوار المدينة بسرعة ، سأكون فى قلعة الفنار ومعى فرقة « أحمد » ، وفرقة « سالم » ، أما فرقة « عمرو » وفرقة « مرقص » فمكانهما إلى الشمال أمام بوابة بومبى ، أما فرقة « سعيد » و « كامل » و « حسن » فتتخذ مكانها على الأسوار الشرقية والميناء ، وهكذا تبقى فرقة « راضى » وفرقة « عبد الرحمن » ومكانهم عند باب رشيد ، تحصنوا بذكر الله ومحبة الوطن ، فالساعات القادمة عصيبة ، وبدأت القوات فى التحرك إلى أماكنها على الأسوار خلف الحصون بين هتافات الشعب الحارة .

كان الصبية الثلاثة يهتفون فى حماس مع جموع الناس ، مر بجوارهم عجوزان مسنان كانا يتحدثان بصوت مرتفع حتى وصل حديثهما إلى أسماعهم ، قال أحدهما : إن قواتنا ليست جنودًا مدربة ، إنهم أبناء الشعب الصياد والفلاح والنجار والبقال ، وأسلحتهم لا تكفى مواجهة أسطول يحمل جيشًا من جنود الفرنجة المدججين بالسلاح ، أجابه الآخر : جازاهم الله العثمانيين والمماليك ، لقد أضعفت صراعاتهم

جيوشنا ، وكل وسائل الدفاع لدينا ، وهذا ما أطمع فينا الفرنساوية .
سأله الآخر فى قلق : إذن سيدخل الأعداء إلينا ؟ .

ابتعد العجوزان وابتعد حديثهما المخيف ، فى حين ظل الصبية الثلاثة صامتين ، وقد تملكهم شعور عميق بالخوف ، فقال « عامر » فى صوت مرتعش : هل سيدخل الفرنسيون إلينا ؟ ، وبعد برهة قال « أصيل » فى حماس : فليدخلوا إلينا كما يدخل الميت إلى مقبرته ، فأرضنا مقبرة كل من يدخلها مغتصبًا معاديًا ، هيا بنا نساعد فى نقل الأسلحة والبارود وصناديق الذخيرة ، ها هو ذا أخى « أحمد » هيا نعاونه هيا ، وانطلق الثلاثة وقد امتلأت قلوبهم حماسًا حتى فارت الدماء فى وجوههم تزيدهم همة ونشاطًا .

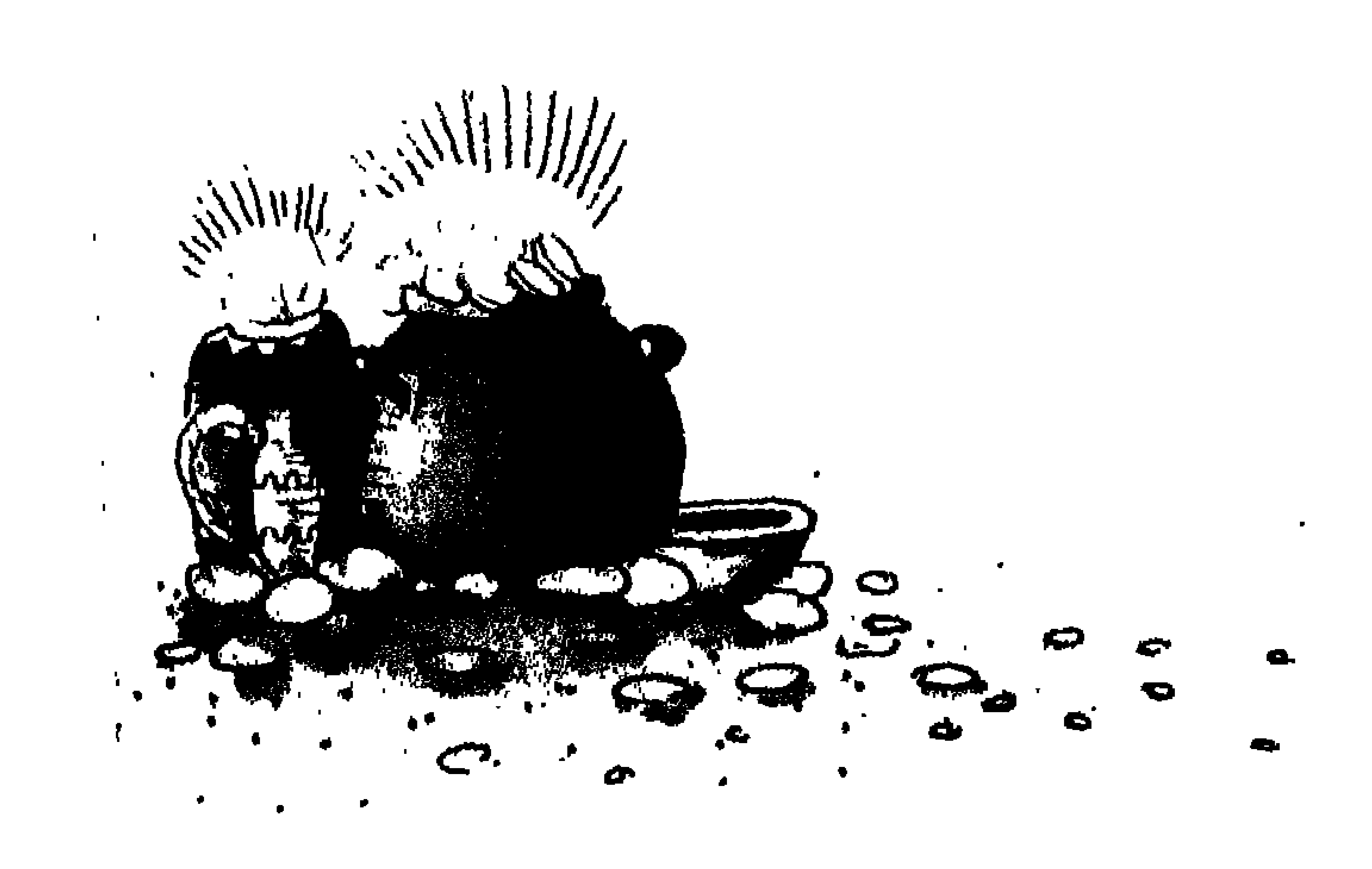


٥

غرقت الإسكندرية فى سكون الليل ، وإن لم يغمض بها جفن ، فالمدافعون على الأسوار متيقظون ، وكذلك الأمهات والزوجات فى المنازل يأكل القلق قلوبهن ، وحتى الأطفال ، فداخل حجرة « عامر » الصغيرة التى أضاءها قنديل صغير ، اجتمع الأولاد وقد انخفض صوت حديثهم على غير العادة ، قال « أصيل » فى ضيق : إننى لم أستطع مفارقة « زينب » طوال اليوم خشية أن تنفرد بأمى أو بجدتى « صابرة » ، فتخبرهما بأمر السرداب ، ضحكت « زينب » ملء شدقيها قائلة : لا تخف منى يا « أصيل » لن أخبر أحدًا ، ولكن لسانى يسكته مذاق السكر ، ثم مدت يدها إلى أخيها الذى نظر إليها فى غيظ ، ثم دس يده فى جيب جلبابه وأخرج قطعتين من الحلوى وضعهما فى كفها الصغير قائلاً : هذا آخر ما معى ، والحوانيت كلها مغلقة ، والآن اجلسى صامتة وإلا سآخذك وألقيك فى البحر كى يلتهمك الفرنسيون على الإفطار .

قالت « زينب » فى فزع : هل يأكلون الأطفال مثل أمنا الغولة التى حكت لى عنها جدتى « صابرة » ؟ ، هتف « أصيل » : قلت لكِ اجلسى صامتة فأمامنا أشياء هامة نريد التحدث فيها ، وقال « حامد » الذى كان جالسًا ليفكر فى صمت : ما رأيكم ؟ ، ألا ينفع كنز السرداب فى إمداد المقاومة الشعبية بالمؤن والسلاح ؟ ، فهتف « عامر » : إنها فكرة رائعة ، ودخلت « عائشة » إلى الحجرة تحمل صينية واسعة عليها أطباق امتلأت بالأرز باللبن ، وقد تزركشت

بالزبيب والبندق ، وأغلقت الباب خلفها قائلة : أمى صنعت لكم أرزًا باللبن ، ثم همست : ألن تذهبوا إلى موعدكم مع الشيخ « حجازى » لتبحثوا فى مكتبته عما يفسر لنا سر هذه السراديب ؟ ! أجابها أخوها « عامر » : أجل ، سنلتهم الحلوى ثم نذهب فورًا ، ولكن عليكِ بزينب ، لا تتركيها لحظة واحدة .



٦

لم يكن العشاء قد أذن إلا من دقائق قليلة ، ولكن الشوارع كانت خالية إلا من بعض الشيوخ الذين ذهبوا للصلاة بالجوامع ليدعوا الله أن يرد إليهم أبناءهم القابعين خلف الأسوار فى انتظار المعركة .

دخل الصبية الثلاثة إلى الجامع وصلوا العشاء خلف الشيخ ، ثم خرجوا معه إلى منزله وقد عقدوا عزمهم على أن يخبروه بالأمر ، كان الشيخ يسير وهو يرتل الآيات ويدعو بالخلاص ثم سألهم فجأة : ما لكم فى هذه الأيام العصيبة تريدون الدرس والبحث فى التاريخ ، على ماذا تبحثون ؟ ، وتلفت الصبية حولهم ثم همس « عامر » : فلنذهب للمنزل أولاً يا سيدنا وسنروى لك كل شىء .



٧

كان الشيخ يستمع إلى روايتهم وهو مفتوح العينين من الدهشة ثم تمتم : هذا والله يبدو خيال أطفال ، هتف « أصيل » : ليس خيالاً يا شيخنا ، لقد كنا ثلاثتنا معًا وكانت معنا « عائشة » أخت « عامر » و « زينب » أختى ، وقال « عامر » : إننا نريد أن نعرف من الذى صنع هذا السرداب ، وكذلك تاريخ هذه العملات .

قام الشيخ إلى مكتبته يبحث فيها حتى أحضر كتابًا غليظًا باليا مهترئ الغلاف مصفر الأوراق ، قلب فيه برهة ، ثم قال : إن غايتنا لابد وأنها داخل المكتبة الكبيرة ، فمكتبة الإسكندرية يا أولاد من أهم المكتبات فى العالم كله ، وهى مكتبة قديمة بها كتب ومخطوطات أثرية لا تقدر بثمن ، سأحاول أن أصحبكم لها ذات يوم ، ثم قطب جبينه فى أسى مردفا : وإن كنت أشك فى إمكانية ذلك خلال الظروف العصيبة التى نمر بها ، لو كان اكتشافكم هذا فى وقت غير الوقت لكان كشفًا رائعًا ، ولكن فى الوقت الحالى أرى أن نتريث فنحن لا ندرى ماذا تحمل الأيام القادمة وبخاصة بالنسبة للكنز ، فإننى أخشى أن نخرجه فيأخذه الأعداء ، وسأله « أصيل » : هل سيدخلون إلى بلادنا ؟ ، فنظر إليه الشيخ برهة ثم قال له : لا تقلق يا بنى ، إنها ليست أول مرة ، لقد هاجم المستعمرون بلادنا كثيرًا من قبل ، وانقض عليها الطامعون مرات عديدة منذ عهود الفراعنة القدماء ، جاءنا الهكسوس ثم الفرس ثم الصليبيون والمغول ، ولكن التاريخ يثبت أننا

طردناهم جميعًا شر طردة ، وكذلك سيكون الحال مع أولئك الفرنسيين فلا تقلقوا .

كانوا يفكرون فى حديث الشيخ فى حين أخذ هو يقلب فى صفحات الكتاب القديم حتى قال : المؤرخون يقولون : إن الإسكندر الأكبر حضر إلى شاطئ مصر وبنى مدينة الإسكندرية ولذلك سميت إسكندرية نسبة إلى اسمه ، ثم أقام بها فترة ، وبعد عهد اليونانيين دخلها الرومان ، وكانت الدولة الرومانية وقتئذ دولة قوية وكبيرة ، وأصبحت مصر جزءًا منها ، والإسكندرية عاصمة ومقرًّا لحكمهم للبلاد والأقاليم المصرية ، فبنوا المعابد والمساكن والمتاجر ، وهذا سر وجود بعض الآثار الرومانية التى نراها فى بلادنا ، وإن كانت بعض أطلال هذه الحضارة دفنت على مر العصور الطويلة ، كما يوجد فى أحد فصول هذا الكتاب سرد تفصيلى لحياة مصر الرومانية بكل تفاصيلها ، أعتقد أنكم لو قرأتم هذا الكتاب ستجدون تفسيرًا لذلك المكان الذى اكتشفتموه ، وسأله « حامد » : هل يمكن أن نستعير هذا الكتاب منك لبعض الوقت ؟ أومأ الشيخ برأسه ثم قال : بالطبع ولكننى أريد أن أحذركم من التواجد فى ذلك المكان الخطر فربما انهارت أجزاء منه فوقكم أو ربما أصابكم به أى سوء ، انتظروا حتى تنتهى أزمة الفرنسيين ثم نبحث الأمر .

خرج الثلاثة من عند الشيخ وقد عاهدوه ألا ينزلوا إلى السرداب باختيارهم مرة أخرى ، وكانوا يتحدثون فى طريق عودتهم حديثًا هامسًا ، قال « حامد » : ترى إلى أين وصل الفرنسيون ؟ هل يرون

الآن شواطئنا من سفنهم ؟ ، فقال « عامر » : عندما أتذكر هذا الأمر يرتعد جسدى ، وقال « أصيل » : أما أنا ، فأتمنى أن لو كنت أكبر سنًّا حتى أكون مع أخى « أحمد » فى الحصون أعد السلاح وأحارب الفرنساويين .

انتبهوا فجأة على منادٍ يطوف بالشوارع يهرول فى ذعر هاتفًا : لقد ظهرت نيران سفنهم من فوق عمود السوارى لقد ظهرت سفن الفرنساوية ، فصاح « أصيل » : هل تسمعون ؟ ! لقد شارفوا على الوصول ، ما رأيكم أن نذهب للشاطئ ونسأل الجنود فى الحصون عن تفاصيل هذا النبأ ، وهتف « عامر » : كلا يا « أصيل » ، لابد أن أمهاتنا قلقات علينا الآن ، يكفيهن ما هن به من قلق ، كما أننا لن نفيد بشىء ألبتة ، وتمتم « أصيل » : مَنْ يدرى ؟ ! ربما استطعنا فى وقت ما أن نفيد بشىء – ربما .

* * *

٨

ما إن أشرقت شمس اليوم الجديد ، حتى تسلل الأولاد كل من منزله ليتقابلوا سرًّا ، دون علم الأمهات القلقات اللاتى أغلقن الأبواب بالمزاليج ، وأدخلن كل شىء داخل المنازل حتى الحيوانات والبهائم ، وقف الصبية يتوارون بحائط منزل « عامر » ، فى حين شاركتهم « عائشة » الاجتماع من نافذة حجرتها بظهر المنزل .

قال « **أصيل** » : (فى قلق) : هل سمعتم آخر الأخبار ؟ بدا الترقب فى عيونهم ، فاستطرد بسرعة : لقد قابلت « إسماعيل » ، وكان عائدًا من الحصون ، إنه يقول إن سفنهم تتجه للغرب ، ويبدو أنهم شاهدوا الأسوار العالية وقرروا الاتجاه إلى ساحل العجمى الغربى ، كما أننى سمعت شيئًا غريبًا ، لقد كانت هناك سفن إنجليزية راسية بالقرب من شواطئنا تراقب الأمور فى صمت ، وقد رحلت أمس قبل وصول الفرنسيين .

سأله « **عامر** » **وماذا يعنى هذا ؟** .

قال « **حامد** » : يبدو أن الإنجليز لا يريدون للفرنسيين أن يقتحموا بلادنا .

قالت « **عائشة** » (فى ابتهاج) : إذن هم قوم طيبون لا يحبون البطش والظلم .

قال « **أصيل** » : بل أنت ساذجة يا « عائشة » ، الإنجليز ليسوا

خيرًا من الفرنسيين ، كل ما فى الأمر أنهما على خلاف ، ولهذا فكر الفرنسيون فى غزونا وسيتبعهم الإنجليز محاولين منعهم .

سأله « **عامر** » : ولكن ما دخلنا فى خلافهم معًا ؟ .

أجابه « **أصيل** » : ألم أقل لك : إن هروبك المستمر من الدروس سيجعلك جاهلاً ، إن للإنجليز مستعمرات فى الهند ، والفرنسيون يريدون أن يقطعوا بنا طريق الإنجليز إليها .

قالت « **عائشة** » (فى جزع) : هل هذا يعنى أن الإنجليز أيضًا يريدون استعمارنا ؟ .

أجابها « **حامد** » : أجل ، إنهم يتصارعون علينا ولكن الله معنا .

قاطعه « **أصيل** » : أجل الله معنا هذا صحيح ، فإنكم لم تمهلونى لأروى لكم كل ما عندى من الأخبار ، إن البحر هائج ومائج على غير العادة فى ذلك الوقت من العام ، وهناك رياح شمالية قوية جعلت سفن الفرنسيين تهتز بعنف وتتأرجح بشدة .

صاحت « **عائشة** » (فى سعادة) : سيغرقهم الله فى البحر .

قاطعها « **حامد** » : لسنا بعصر المعجزات كى يغرقهم الله كما أغرق قوم فرعون الظالمين ، ولكن يجب علينا أن نعمل ، ونقاومهم وندعو الله أن يعاوننا ، ليت رجالنا يكونون مستعدين كما ينبغى لمواجهتهم إتقدت عينا « أصيل » بالحماس قائلاً : كلا ، أنا لا أستطيع الانتظار هنا ، سأذهب للشاطئ وأقابل أخى « أحمد » وأطمئن على الأخبار بنفسى ، انطلق « أصيل » وخلفه انطلق « حامد » مناديًا : انتظر

يا « أصيل » فلنذهب سويًّا . هرول « عامر » خلفهما هاتفًا : وأنا أيضًا ، هل أنا أقل منكما شجاعة ؟ ، وخبطت « عائشة » بكفيها حافة النافذة فى ضيق قائلة من بين أسنانها : لو كنت صبيًّا لكنت معهم الآن ، وفكرت برهة ثم قالت بعدها فى إصرار : ولكننى سأعمل شيئًا مفيدًا ، يجب أن أعمل شيئًا مفيدًا – وانطلقت إلى حجرة أمها ، نظرت إليها أمها فى دهشة متسائلة : ماذا بك يا « عائشة » ؟ ، هتفت « عائشة » : أريد كل ما لدينا من خزين الدقيق والسمن والسكر وكل شىء ، سألتها أمها : لماذا يا ابنتى ؟ ، أجابتها فى حماس : سأصنع منها فطائر نبعث بها للجنود على الحصون كى تمدهم بالقوة والطاقة ، ابتسمت أمها ثم قالت : حسنًا يا حبيبتى هيا بنا لنبدأ فى العجين حتى يخمر قبل الظهر .



٩

اقترب الأولاد الثلاثة من قلعة الفنار فى رأس الإسكندرية ، سألهم أحد الرجال فى حدة : إلى أين أنتم ذاهبون ؟ ، صاح « أصيل » : أحمد يا أحمد ، إننى « أصيل » دعهم يتركوننا نمر ، بعد برهة انبعثت إشارة من القلعة تركهم الرجل بعدها يَدْلِفُونَ من البوابة إلى القلعة ، اتجهوا إلى « أحمد » مباشرة ، كان جالسًا وحوله عشرات الرجال يشحذون أسلحتهم ويملئونها بالبارود .

التفت « **أحمد** » إليه قائلاً : ما الذى أتى بك وأصدقاءك يا « أصيل » هل حدث شىء ؟ .

أجابه « **أصيل** » : نريد أن نعرف آخر الأخبار .

قال « **أحمد** » (فى ضيق) : إننا لا نلعب لعبة العسكر والحرامية ، إننا نحارب فعودوا لمنازلكم فورًا – قاطعه أحد زملائه قائلاً : دعهم يا « أحمد » إنهم رجال ، استمر أنت فى عملك فأنت قائد مجموعتنا ، وسأجيبهم على كل تساؤلاتهم كى يطمئنوا الأهالى بالديار ، ثم التفت إلى الصبية قائلاً : إنهم يتجهون للساحل الغربى ، وقد لا يصلون قبل منتصف الليل ، إذ أن الرياح قوية وهى ضد اتجاههم ، ويبدو أنهم سينزلون جيوشهم على البر ، ثم يسيرون برًّا حتى أسوارنا ، ثم يهاجمونها ، لأن هجومهم بريا أقوى من دخولهم أمام حصوننا بسفنهم ، فيصبح اصطيادهم سهلاً وهم يعلمون هذا جيدًا .

وقبل أن يكمل الرجل حديثه سمع الجميع صوت صرخة قوية من

أعلى القلعة تصيح : اضربوا ، وفجأة انطلقت المدافع المصرية فى اتجاه أحد السفن ، انكمش الصبية من الخوف ، فى حين تركهم الرجل وهرول يحمل سلاحه وهو يقول لهم : ألم أقل لكم ، إن هذه سفينة عنيدة حاولت الاقتراب إلى الأسوار رأسًا ، ولكنها عادت لقافلتها فور هجوم مدفعيتنا عليها ، وتسلل الثلاثة وسط الجنود حتى وصلوا إلى حيث يستطيعون رؤية البحر ، شاهدوا أشباح السفن الضخمة تتحرك فى اتجاه الغرب ، فى حين تسارع إحداها لتلحق بالقطيع ، ووقف الصبية وقد بهتوا بهذا المنظر الرهيب الذى لم يروه من قبل حتى فى أحلامهم .

همس « حامد » : إنهم كثيرون جدًّا .

ردد « أصيل » : أكاد لا أصدق عينى ، إنه كابوس ، كابوس لابد أن نستيقظ منه ، وشعر أصيل بيد حانية تربت كتفه ، التفت بسرعة ثم هتف : السيد « محمد كريم » !! ، وهب الأولاد الثلاثة واقفين ، نظر إليهم الشيخ فى عطف ثم قال : إنكم صغار جدًّا ، ما الذى أتى بكم إلى الحصون ؟ ، أجابه « أصيل » : إننا رجال – ولا نطيق البقاء فى الديار مع النساء والأطفال ، إن عمرى ثلاثة عشر عاما وكذلك عامر وحامد ، نظر إليهم الشيخ برهة ثم قال : حسنًا ، ولكن فلتعودوا إلى الديار لتبلغوا أمهاتكم بيقائكم هنا ، أليس هذا هو حق الأم على ولدها ، أليس من حقها أن تطمئن على فلذة كبدها ؟ أومأ الصبية برءوسهم متمتمين : أجل ، قال « حامد » : إذن هيا بنا ، نظر

« أصيل » فى حب إلى الشيخ « محمد كريم » قائلاً : أشكرك يا سيدى نشكرك جميعًا على منحنا هذا الشرف العظيم .

هرول « أصيل » إلى « أحمد » هاتفًا : لقد أذن لنا السيد « كريم » بالبقاء ، سنذهب لنبلغ أمهاتنا ونعود فورًا . قبل أن يرحلوا سأل « حامد » « أحمد » : ألم تر والدى يا « أحمد » ؟ أليس ضمن هذه الفرقة ، أجابه « أحمد » : كلا لم أره يا « حامد » ولا أدرى لماذا تخلف عن الحضور .

انطلق الصبية فى طريقهم إلى منازلهم تحت الشمس الحارة ، كان التعب قد نال منهم ، وإن حجبه عنهم حماسهم وحديثهم عن القتال طوال الطريق حتى بدت لهم الديار ، قال « أصيل » : هل تصدقون أننا قد أذن لنا بالاشتراك فى الدفاع عن الوطن ؟ ..

قال « **حامد** » : هذا والله لشرف لنا ستفتخر به أمهاتنا .

قاطعه « **عامر** » : أنت تعتقد هذا ، ولكن ما سيحدث أنهن ستقلقن علينا وربما تمنعننا من العودة إلى الحصون .

صاح « **أصيل** » : هذا مستحيل لقد أخذنا الإذن من السيد « كريم » .

سألهما « **عامر** » (فجأة) : وماذا عن سردابنا ؟ لقد نسينا أمره .

قال « حامد » : لقد قضيت عدة ساعات أمس راقدًا أسفل فراشى ومعى مصباح صغير حتى لا ترانى أمى ، وقرأت كثيرًا فى الكتاب الذى أحضرناه من عند الشيخ « حجازى » بالأمس ، إنه كتاب رائع ،

وبه تفاصيل دقيقة وشيقة ولكنه كبير جدًّا لم أستطع الانتهاء منه ، كما أن روحى كادت تزهق وأنا أرقد أسفل الفراش .

قال « **أصيل** » (فى شغف) : إننا لم نكمل اكتشاف السرداب بعد ، ولكن لنرجئ هذا الأمر ، فنحن الآن جنود أم أنكم قد نسيتم ؟ .

قال « **عامر** » وقد أصبحوا أمام منزله : كلا لم ننس ، ولكن انظرا لعينى أمى الواقفة بالباب وأنت تعرف أننا لن نستطيع أن نصبح جنودًا ، أو أن ترى أعيننا الحصون مرة أخرى ، صاحت والدة « عامر » : أين كنتم ؟ خرجت « عائشة » إلى جوار أمها هاتفة : لقد صنعنا فطائر للجنود .

قال « **عامر** » (بسرعة) : حسنًا ، فلنوصلها لهم الآن .

قالت « **أمه** » : فلتوصلوها ثم تعودوا بسرعة بعد ذلك .

أجابها **عامر** » : يا أمي إن الطريق من هنا إلى الشاطئ طويل ، وقد انتصف النهار الآن ، وربما نصل إلى هناك عند حلول الظلام ، ونضطر للمبيت معهم بالحصون على أن نعود غدًا .

صاحت « **أمه** » : ما هذا ؟ ، إن الطريق لن يستغرق كل هذا الوقت .

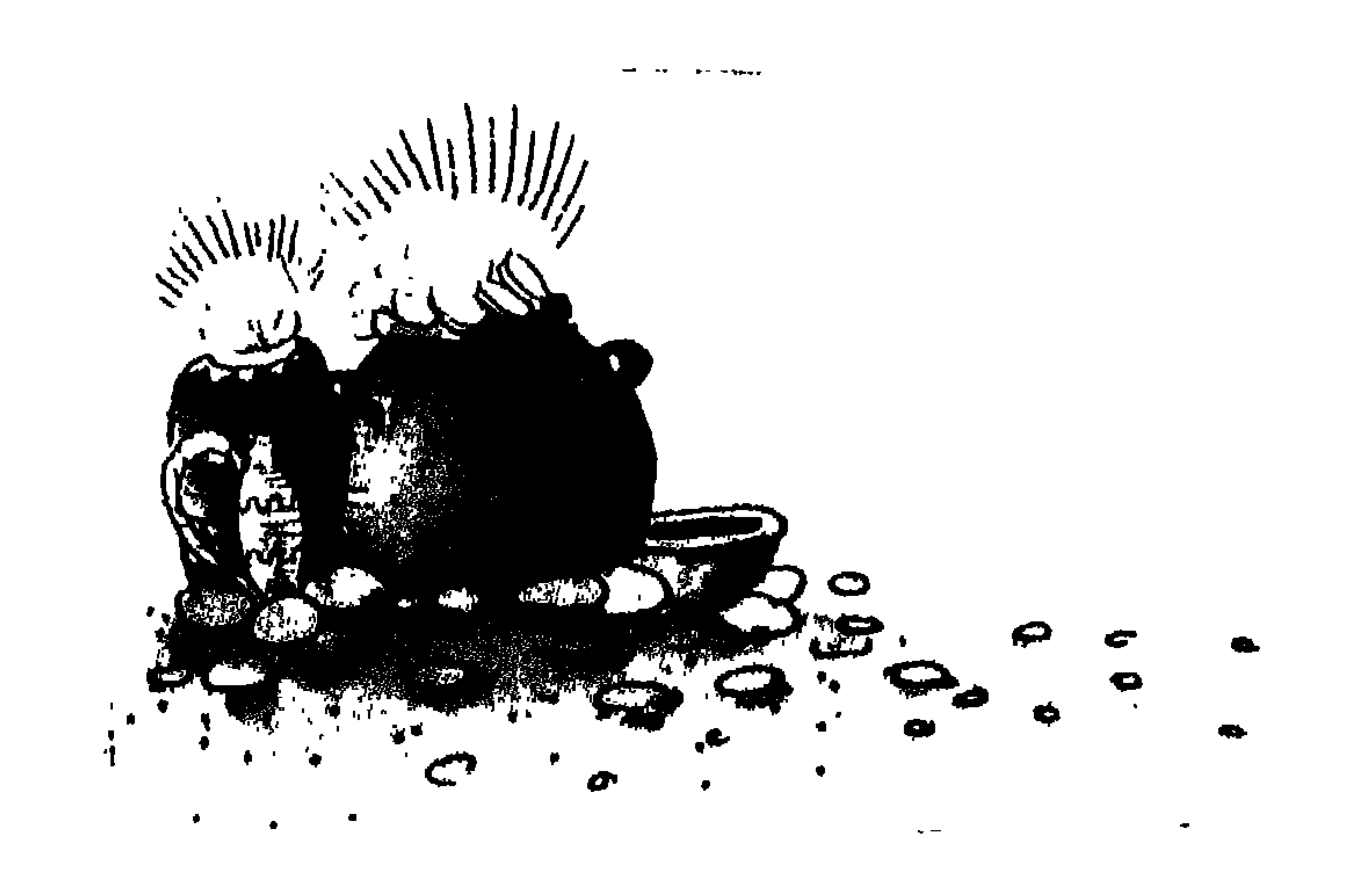
تمتم « **عامر** » : كل شىء بإذن الله يا أمى ، ودخلت الأم إلى المنزل وخلفها « عائشة » لتضعا الفطائر فى لفافات سهلة الحمل .

همس « **أصيل** » : لماذا كذبت على أمك يا « عامر » .

أجابه « **عامر** » : خفت أن تمنعنى يا « أصيل » .

قال « **حامد** » : لنذهب إلى منزلينا الآن يا « أصيل » لنبلغ أمهاتنا ولنعود لنلتقى هنا كى نذهب معًا كلنا .

* * *



١٠

انصرف « أصيل » و « حامد » كل إلى منزله ، والذى لم يكن يبعد عن منزل « عامر » سوى مسافة عدة بيوت صغيرة ، ودخل « أصيل » إلى منزله ، كانت جدته « صابرة » جالسة تغربل بعض الحبوب ، وإلى جوارها كانت أخته « زينب » التى كانت تثرثر وتتحدث إليها ، نظر « أصيل » إلى « زينب » فى توجس ثم سألها : كيف حالك يا « زينب » ؟ ابتسمت « زينب » مجيبة : الحمد لله ، واتجه إلى حجرته بسرعة مناديًا : تعالى يا « زينب » ، أريدك فورًا ، فقامت « زينب » تلبى دعوة « أصيل » وما إن دلفت إلى حجرته حتى جذبها وأغلق الباب ، ثم أمسك بأذنها بين أصابعه هامسًا من بين أسنانه : ماذا قلت لجدتى ؟ اعترفى بكل شىء فورًا وإلا سآخذ أذنك ولن أعيدها إليك ، وتأوهت « زينب » وهى تتلوى حتى أفلتت أذنها من بين أصابعه ثم فرت قائلة : لم أقل لها أى شىء ، ألم أعدك يا « أصيل » ؟ كما أننى لا أحب أن أتذكر ذلك المكان لأنه يخيفنى .

تنفس « أصيل » الصعداء ثم قال : حسنًا ، قالت « زينب » : لقد كنت أسأل جدتى عن ذلك الانتفاخ الكبير ببطن حمارتى ، كنت أخاف أن تكون مريضة ، ولكن جدتى « صابرة » قالت لى إنها ستلد حمارًا صغيرًا ، ثم قفزت « زينب » وهى تصفق بكفيها فى مرح قائلة : سيصبح لدى حماران الأم والطفل ، نظر إليها « أصيل » ثم سألها : أين أمى ؟ ، أجابته : إنها تصنع مربى شهية ، فخرج « أصيل »

من حجرته ، ثم ذهب إلى أمه ، كانت تضع المربى فى أوان زجاجية نظيفة .

سألها « أصيل » (مداعبًا) : كم إناء لى يا أمى ؟ ، ابتسمت أمه فى حب مجيبة : كلها لك يا حبيبى ، فاستطرد فى خجل : كلا سأكتفى بالإناءين الكبيرين ، نظرت إليه أمه فى دهشة ، فأكمل حديثه : إننى ذاهب إلى الحصون وسآخذهما للرجال هناك ، فهم يقفون فى العراء وزادهم قليل ، اتسعت ابتسامتها قائلة : فلتأخذها كلها يا بنى ، فكلهم هناك أبنائى ، ويدافعون عنى وعن أبنائى ، ولكن هل ستوصلها ثم تعود ؟ ، أجابها « أصيل » فى حسم : كلا يا أمى إن بلادنا فى حاجة لكل يد حتى ولو كانت يدًا صغيرة كيدى ، واقتربت منه أمه وأمسكت يده ثم ضمته إلى قلبها قائلة من بين دموعها : ومن قال : إن يدك صغيرة ، إنها كبيرة وقوية ، إنها يد مصرية ، اذهب يا بنى واعمل ما عليك والباقى من شأن الله .



١١

كان الجنود خلف أسوار الإسكندرية ، تثور نفوسهم كالمراجل المغلقة ، كلما استوضحوا ملامح الأسطول الفرنسي وضخامته ، جلس الصبية الثلاثة إلى الشاب الودود الذى حادثهم فى الصباح ، تعرفوا به وصاروا يمطرونه بالأسئلة مما يعرف إجابته ومما لا يعرف أحدًا إجابة عليه .

سأله « **حامد** » : كم يستغرقون من الوقت للوصول لشواطئنا ؟ .

فكر « **مصطفى** » برهة ثم قال : فى حالة الرياح الحالية ، فإنهم لن يصلوا إلى شواطئنا قبل منتصف الليل ، وبما أنهم سينزلون أقصى الغرب فأمامهم يوم وليلة حتى يقطعوا هذه المسافة فى الصحراء ، كما أن البدو ساكنو الصحراء الغربية لن يتركوهم وشأنهم ، لقد سمعنا أنهم قاموا بردم كل الآبار التى قد يمر بها الفرنسيون ، كما أنهم فرسان مهرة ولا تنسوا أن الفرنسيين قادمون من سفر طويل ، وفى الغالب إن مؤنهم تكون قد شارفت على النفاد ، وكذلك ما لديهم من ماء لسقايتهم وسقاية خيولهم .

صاح أحد الرجال : يا سيد « كريم » — يا سيد « كريم » ، إنهم أعداد هائلة لا قبل لنا بهم ، فلنبعث للقاهرة فى طلب الإمدادات .

اقترب منه الشيخ « كريم » يهدئ من روعه ، ثم خاطب الرجال فى صوت مرتفع : لقد رأيت مثلكم أن أعدادهم هائلة ، ولذلك فقد بعثت برسالة إلى « مراد » بك بالقاهرة أطلب فيها إمدادات من الرجال والبارود .

صاح أحد الرجال : لن يفعل لنا العثمانيون ولا المماليك شيئًا ، إنهم سبب كل ما نحن فيه من البلاء .

صاح آخر : سنقاوم - سنقاوم وحدنا للنهاية ، لكى تبقى بلادنا لنا وحدنا فى النهاية .



١٢

كانت « عائشة » وحدها فى شرود تتخيل ماذا يفعل مَنْ بالحصون خلف الأسوار العالية ؟ ، ترى هل سيحارب « عامر » و « حامد » و « أصيل » حقًا كما سمعتهم يهمسون قبل رحيلهم ؟ ، ودخلت « زينب » الصغيرة إلى المنزل منادية : « عائشة » ، أين أنت ؟ ، أجابتها « عائشة » : تعالى يا « زينب » ، وتقدمت إليها « زينب » مهرولة ثم اقتربت منها هامسة : جدتى تقول : إن « أصيل » سيحارب مع الرجال ، ثم استطردت فى دهشة : لقد اعتقد « أصيل » أننى قد بحت بالسر لجدتى وكاد ينتزع أذنى ، ليتهم يجعلونه مختصًّا بجذب آذان الفرنسيين ، فهو يعرف كيف يضغط عليها ثم يجذبها بشدة ، إن « أصيل » يعتقد أننى صغيرة وسأبوح للجميع بقصة السرداب .

تذكرت « عائشة » السرداب ، ففكرت برهة ثم قالت « لزينب » : هيا بنا نحضر الكتاب الذى أحضروه من عند الشيخ ، إنه فى منزل « حامد » ، فلنحضره ونتسلى به قليلاً ، ولكن إياك والثرثرة أمام والد « حامد » يا « زينب » ، أومأت « زينب » برأسها فى سعادة ، وخرجت الفتاتان إلى حيث منزل « حامد » ، دقت « زينب » الباب ففتحته والدة « حامد » التى ابتسمت حين رأت الفتاتين ثم دعتهما للدخول .

سألتها « عائشة » : هل ذهب عم حسين مع المدافعين ؟ ، أجابتها السيدة فى فخر : إنه لم يذهب بعد ، لقد جمع كل ما لدينا بالمخزن والحانوت من بقالة وزيت وحبوب ودقيق وذهب لإعطائها للفقراء

من الجيران . ومن خلت بيوتهم من المؤن اللازمة للأيام القادمة ، فهم يكسبون رزقهم يوما بيوم ، وبعد أن ذهب رجالهم ومن يعولونهم إلى الحصون ، فهم فى حاجة لمؤن وطعام لعدة أيام على الأقل ، ابتسمت « عائشة » متمتمة : إننى أرى هذه الأيام أشياء لم أكن أتوقعها ، كما أننى اكتشفت أننا النساء المصريات مخلصات للوطن ومضحيات مثلنا مثل الرجال .

جذبت « زينب » ذيل فستان « عائشة » هامسة : الكتاب ، تذكرت « عائشة » فقالت : هل يمكن يا خالتى أن تبحثى لى فى حجرة « حامد » عن كتاب ضخم أصفر الأوراق قال « حامد » : إنه كتاب مسلٍّ وسأقرأ منه حكايات « لزينب » ، وأجابتها السيدة فى حب : ادخلى يا ابنتى إلى حجرة « حامد » وخذى ما شئت ، ابتسمت « عائشة » وذهبت إلى حجرة « حامد » ، بحثت فى بعض الكتب كان « حامد » يحفظها بعناية فى صندوق خشبى بركن الحجرة ، تعرفت على الكتاب من كبر حجمه ، أخذته بين يديها ثم استأذنت السيدة وانصرفت وإلى جوارها « زينب » تقفز فى مرح .

* * *

١٣

عندما حل الظلام ، كان الأسطول الفرنسى قد وصل إلى الشواطئ الغربية ، فألقت حاملات الجنود مراسيها على بعد ثلاثة أميال من البر ، أما البوارج فقد استقرت أبعد من ذلك ، ولما كانت المداخل إلى الساحل محفوفة بالصخور والشعاب ، والبحر يزداد هياجًا على هياج ، فقد مضت ساعات طويلة مضنية يحاول فيها الجنود الوصول للشاطئ دون جدوى ، حتى اضطروا إلى النزول فى مجموعات إلى زوارق صغيرة تجر بالحبال ، فامتلأ البحر بالزوارق المقلوبة ، وكانت صرخات الرجال تعلو على ضجيج الأمواج ، ولم يكن يلم بالسباحة منهم إلا أقل القليل ، فكانت الصخور مصفاة لا تنفذ سوى جنديين أو ثلاثة على الأكثر من كل خمسة جنود .

وصلت الأخبار للمدافعين خلف الحصون ، فأمر الشيخ « محمد كريم » الفرق التى كانت بالأسوار الشرقية أن تنتقل كلها لتعزيز القوات خلف الأسوار الغربية ، كى تكون الخطوط الدفاعية الأولى أقوى ما تكون ، وبدأت الفرق فى التحرك طوال ساعات الليل ، وعند بزوغ الفجر كان كل واحد قد اتخذ مكانه ومعه سلاحه ، وظل الصبية الثلاثة مستيقظين طوال الليل يساعدون فى نقل صناديق الذخيرة وبراميل البارود حتى أنهكهم التعب ، ونالهم الإعياء ، فاستلقوا يأخذون قسطًا من الراحة ، ولكنهم ما لبثوا أن استيقظوا على صوت مناد يصيح : يا سيد « كريم » ، هناك رسول من البدو قادم إلينا ، وخرج السيد « كريم » لمقابلة الرسول الذى كان قادمًا فى ملابسه البدوية

الفضفاضة يمتطى جوادًا أشهب ، اقترب الرجال ليسمعوا حديثهما في حين اندس « أصيل » وسطهم ليعرف كل شيء .

ألقى الرجل بالتحية على السيد « كريم » ، ثم قال له : لقد وصل الفرنجة إلى البر وبدءوا في التحرك في اتجاهكم ، لقد قمنا بكل ما يمكننا فردمنا الآبار وسددنا صهاريج المياه ، وأعددنا بعض الفرق على الخيول لاقتناص الجنود الفرنسيين بين الحين والحين ، فهم أعداد هائلة ومعهم أسلحة لم نرها من قبل ، وقد قمنا بالفعل بأسر أعداد منهم ، وقد سألهم أحد رجال قبيلتنا – وهو يعرف لغتهم – عن خططهم المقبلة ، وقد أجابوا بأنهم لن يبدءوا في الهجوم إلا بعد أن يتجمعوا كلهم خلف الأسوار ليضربوا ضربة رجل واحد ، وقد أتيت أحذركم وأطلعكم على ما لدينا من أنباء ، فشرد السيد « كريم » برهة ، ثم شكر البدوى الذى انصرف على جواده مودعا ومتمنيا التوفيق لهم جميعًا .

وكان حديث البدوى صادقًا ، فقد بدأ ما تبقى من الجنود الفرنسيين – بعد الصراع مع الأمواج العاتية ، ثم الصراع مع أميال طويلة في الصحراء – في التجمع ، حتى كان المجاهدون خلف الأسوار الغربية يميزون بالمناظير المكبرة البسيطة التركيب كل ترتيبات الجنود ، ورأى بعضهم لأول مرة القائد المتغطرس « نابليون بونابرت » ، والذى أعياه العطش مثل باقى الضباط والجنود الفرنسيين الذين لم يعتادوا هذا الطقس الحار ، ولما كان ماؤهم قد نفد فقد كانوا يأكلون بعض ثمرات البرتقال التى أحضروها معهم كطعام وماء وزاد لهم .

كان الاضطراب يسود المدافعين ، ووصلت تلك الأنباء قلعة الفنار ، فازداد قلق الرجال ، وسأل « أصيل » « مصطفى » فى تعجب : ألا يجب أن تسعدوا لتلك الحالة من العطش والإعياء ؟ ، ألا يجعل هذا مقاومتهم أسهل ؟ ! ، شرد « مصطفى » برهة ثم أجابه : كلا يا « أصيل » ، إنهم يفوقون عددنا عشرات المرات ، العطش يجعلهم أكثر ثورة وتوحشًا ورغبة فى القضاء على مقاومتنا للوصول للزاد والماء ، صاح « أحمد » : ابدءوا الضرب ، لقد بدءوا فى الهجوم .

وبدأ الصراع بين الطرفين متكافئًا رغم قلة عدد المصريين ، ارتعد « عامر » وهو يساعد أحد الرجال فى شحذ مدفعه بالبارود كلما فرغ ، فى حين كان « حامد » يبلغ رسالات المدافعين للسيد « محمد كريم » بأعلى القلعة ويعود للرجال بالرد ، أما « أصيل » فقد اختلس بندقية حديدية ثقيلة حملها بين يديه وبدأ فى محاولة استعمالها .

كانت الحصون والأسوار الشامخة تتلقى مدافع الفرنسيين الثقيلة فى صمود ، على حين ذعر الفرنسيون الذين لم يتوقعوا مثل هذه المقاومة من المصريين ، حتى إن بعض جنودهم حاولوا ارتقاء الأسوار ، ولكنهم أصيبوا بوابل من الطلقات جعل الباقين منهم على قيد الحياة يرتدون على أعقابهم ، هتف أحد المصريين : لقد أصبنا بعضًا من قوادهم وبدءوا فى التقهقر فلنزد من سيل بارودنا عليهم ، ولكنَّ أحدًا من الرجال لم يجب ، فقد نفد البارود والرصاص .

هرول « عامر » و « أصيل » و « حامد » وقد حمل كل منهم جوالاً فارغًا وبعد دقائق عادوا وقد امتلأت الأجولة بالحجارة ، سارع بعض

الشباب إلى تقليدهم وبدأ سيل من الأحجار ينهمر على الفرنسيين ، ولكن السيد « محمد كريم » أشار لهم بالتوقف برهة ، إذ أن رسالة وصلته من الفرنسيين ، قرأ الرجل الرسالة ثم تحدث إلى الرجال فى صوت مرتفع : إنهم يعرضون علينا أن نستسلم لهم لكى نسلم من بطشهم ، لأنهم يعرفون أن سلاحنا قد نفد فما رأيكم ؟ ، فصاح الرجال : سنقاوم حتى الموت ، لن نستسلم أبدًا ، قال « كريم » فى ثقة : هكذا أجبتهم فاستمروا .

كان الشباب يعملون فى همة واستبسال فى إلقاء الحجارة على كل من يحاول تسلق الأسوار ، ولكنَّ صبر الفرنسيين نفد ، واستبد بهم العطش ، فقرروا إلقاء القنابل الكبيرة واستخدام المدافع الثقيلة ذات البارود المتفجر ، وأمام وحشية الفرنسيين تساقط عشرات المصريين يروون الأرض بدمائهم على أمل فى ثمار هذا الرى الثمين ، ودخل الفرنسيون عبر الأسوار الغربية ، ولكن قلعة الفنار ظلت تقاوم حتى منتصف الليل أمام القذائف الغزيرة فى عناد وإصرار ، حتى اضطر نابليون لأن يهجم بجيشه كله ، ولم يكن ذلك القائد يعتقد أنه سيحتاج لكل هذا الجيش الرهيب الذى أعده لمجرد النزول إلى شاطئ تلك المدينة الجميلة الساحرة الراقدة فى دعة على شاطئ البحر المتوسط .

* * *

١٤

في هذه الأثناء كانت « عائشة » جالسة تقرأ في الكتاب بشغف ، حتى أنساها كل الأحداث الدائرة على امتداد البصر ، كانت تقرأ أشياء كثيرة جعلتها تشعر برغبة في الهبوط إلى السرداب مرة أخرى ، نظرت إلى « زينب » التي غلبها النعاس مبكرًا فتكورت إلى جوارها وراحت في سبات عميق ، لمعت عينا « عائشة » فجأة ، لماذا لا تهبط وحدها وتحاول اكتشاف بقية هذا المكان الغامض ؟ ، إن الكتاب يقول : إن مثل هذه الأماكن قد يتضح لها أكثر من مدخل ، إذن فهذا السرداب قد تكون به فتحات أخرى ، فكرت برهة ثم عقدت العزم على أن تهبط إليه .

كان ضوء النهار قد بدأ ينتشر ، أيقظت « عائشة » « زينب » هامسة : زينب – زينب ، سأنزل للسرداب ، هل تأتين معي ؟ ، فتحت « زينب » عينيها ثم هتفت في فزع : ماذا تقولين ؟ ، هل ستنزلين إلى السرداب وحدك ؟ ، أجابتها « عائشة » : كلا – ستكونين معي ، وقامت « عائشة » تسير بخطوات خافتة ، وخلفها « زينب » تتلفت حولها في حذر متمتمة : إنني أخاف من هذا المكان ، وأخاف أن نكون فيه بمفردنا ، أشارت لها « عائشة » أن تكف عن الحديث حتى خرجتا من منزل « عائشة » ، وصلتا إلى حانوت والد « حامد » ثم دلفتا من الفتحة السرية إلى المخزن ، وما هي إلا دقائق حتى كانتا في قلب السرداب ، وليس معهما سوى مصباح زيتي صغير ، وبعض حبات الطماطم تحملها « زينب » في يد ، وتمسك في أذيال « عائشة »

باليد الأخرى ، قالت « عائشة » : إن ضوء النهار بدأ يتضح فوق سطح الأرض ، وهذا سيسهل لنا العثور على المداخل الأخرى ، سألتها « زينب » : أى مداخل هذه يا « عائشة » ؟ ،أجابتها « عائشة » وكأنها ترتب أفكارها : إن هذا المدخل انفتح بالصدفة ، وهناك البئر القديمة إذن لابد أن هناك ثغرات أخرى فى أماكن متفرقة .

بعد سير غير قليل وصلنا إلى فتحة البئر ، توقفت عائشة قائلة : نريد أن نغير اتجاهنا من هنا ، تلفتت حولها ، كان هناك طريق آخر يبدو ممتدًّا ، ولكنه كان شديد الضيق ، سارت فيه « عائشة » ، وقد أحنت قامتها ، وخلفها « زينب » تثرثر : هذا يكفى يا « عائشة » ، أريد أن أعود ، لقد مضى وقت طويل ونحن هنا ، كدت أختنق ، كما أن أمى تعرف أننى أبيت معك ، فماذا لو سألت أمك علىّ ولم تجدانا ؟ ! سنضرب علقة ساخنة ، كما أن هذا السرداب مخيف جدًّا يا عائشة ، قالت لها « عائشة » فى ود : ماذا بك يا « زينب » ؟ ألم تقولى لنا : إنك أصبحت كبيرة وأنك قاربت على إتمام سبع سنوات ؟ ، قالت « زينب » فى أسى : أجل ، كنت أتمنى هذا وكنت أنتظر يوم ميلادى كى آكل البطة الكبيرة ، سألتها « عائشة » : وماذا جرى ؟ انفجرت « زينب » فى البكاء قائلة : لقد ضللنا الطريق ، منذ ساعتين أو أكثر ونحن نسير فى تلك الطرقات الضيقة ونخرج من طريق إلى طريق ، إننا لن نستطيع العودة ولن أرى أمى وإخوتى وجدتى بعد اليوم ، استدارت لها « عائشة » بصعوبة ثم ضمتها بذراعها قائلة : لا تخافى يا « زينب » ، تسلى بأكل الطماطم لا تخافى ، ثم هتفت

فجأة : اسمعى يا « زينب » ، اسمعى – أليس هذا وقع أقدام فوقنا ؟ ! ، ابتلعت « زينب » بكاءها ثم قضمت قضمة من آخر حبة طماطم كانت معها ، صمتت الفتاتان برهة تتسمعان ، كان الصوت فوقهم مباشرة وكأنه لعدة أشخاص يهرولون بسرعة ، عقدت « عائشة » حاجبيها فى قلق ثم قالت : ماذا حدث ؟ ! إن الوقت مبكر ، لماذا يجرى البعض فى طرقات المدينة بهذه الطريقة ؟ ! . تكررت الأصوات مرة بعد مرة وكانت تبدو لأعداد كبيرة من الناس ، تمتمت « عائشة » : يبدو أن هناك أمرًا خطيرًا يجرى فوقنا .



١٥

وكانت « عائشة » على حق ، فقد اجتاح الفرنسيون شوارع الإسكندرية في ساعات النهار الأولى ، وفر أفراد المقاومة للاحتماء فى المنازل والطرقات الضيقة ، لا من خوف ولكن ليتمكنوا من اصطياد الفرنسيين من خلف المنعطفات وأسطح المنازل ، والتى لا يعرفها الفرنسيون بعد ، واستشهد الكثيرون من فرقة قلعة الفنار المستبسلة ، وأسر الفرنسيون السيد « محمد كريم » حاملاً سلاحه رافعًا رأسه فى شموخ بعد ليلة طويلة من المقاومة المضنية .

حينما بدأ تلاحم القوات فر « عامر » و « حامد » و « أصيل » إلى المدينة ، وقد احتفظ أصيل بالبندقية الحديدية الخاوية بين يديه ، وأثناء هرولتهم فى أحد الطرقات الضيقة ، كانت هناك جماعة من الجنود الفرنسيين العزل ، تطاردهم جماعة من الوطنيين المصريين بالعصى والحجارة ، وكان المصريون أكثر عددًا فاستمروا فى مطاردة الفرنسيين بحماس لقتلهم .

فجأة وجد الصبية الثلاثة الفرنسيين المذعورين قادمين فى اتجاههم ، صرخ « عامر » : ألق لهم بالبندقية يا أصيل ، سيقتلوننا من أجل أن يأخذوها ، لأنهم يظنونها محشوة بالبارود ، هتف « حامد » : سيقتلوننا على أى حال حتى لا نبلغ الوطنيين أين اختبئوا صرخ « أصيل » : إنهم سبعة لا نستطيع مقاومتهم ، ما العمل إلى أين نتجه ؟ ! هرول الثلاثة إلى سلم هموا بارتقائه ، ولكنهم فجأة سمعوا آخر صوت توقعوا أن يسمعوه فى هذا المكان وفى ذلك الوقت ، كان صوت « عائشة »

قادمًا من تحت الأرض ينادى : « عامر » -« جامد » - « أصيل » تعالوا هنا بسرعة .

تسمر الثلاثة يتلفتون حولهم فى ذعر ، فإذا بصوت « زينب » الصغيرة يصيح : انظروا تحت أقدامكم ، نظر الصبية فإذا بفجوة فى جدار مبنى قديم تلتصق بالأرض يسدها حجر ضخم ، اقتربوا منها بسرعة ودفع ثلاثتهم الحجر ، فإذا برأسى « عائشة » و« زينب » تبرزان من الظلام ، صرخ « عامر » : ما هذا ؟ ، صاحت عائشة : ادخلوا بسرعة - بسرعة ، دلف الثلاثة الواحد تلو الآخر ليجدوا أنفسهم داخل سرداب آخر تحت الأرض ، أسرعت « زينب » و« عائشة » وخلفهما الأولاد الثلاثة يهبطون عدة درجات ، ثم ساروا فى ممر ضيق يؤدى إلى ما يشبه الردهة المتسعة بعض الشىء ، وقد امتلأت بالصخور والأحجار ، كانوا قد ابتعدوا عن المدخل فجلسوا يلتقطون أنفاسهم على بعض الأحجار ، وكان كل واحد منهم لديه الكثير ليقوله للآخرين ، قال « أصيل » فى أسى : لقد تغلبت أسلحتهم على قوتنا وعزيمتنا ، وضعت « عائشة » المصباح على الأرض ثم ألقت جسدها على أحد الصخور وكأن ساقيها لا تقويان على حملها .

هتف « **عامر** » : إنهم ألوف وأسلحتهم بالألوف وبارودهم لا نهاية له .

قال « **حامد** » : هذا أمر الله .

قاطعه « **أصيل** » : ولكن الأمر لم ينته بعد ، ليس هدفهم أن يدخلوا إلينا ، إن هدفهم أن تصبح مصر مستعمرة فرنسية وهذا لن يتحقق

أبدًا ، ساد صمت ثقيل قطعته « زينب » قائلة فى أسى : هل سنظل فى هذا المكان حتى يرحلوا عنا ، سأل « عامر » « عائشة » : ما هذا المكان وكيف وصلتما إلى هنا ؟ ! ، أجابته « عائشة » : لقد كنت أشعر بضيق فأخذت الكتاب وقرأت فيه كثيرًا وقررت أن أنزل وحدى لأكتشف بقية تلك المدينة المدفونة ، ومنذ ساعات ضللنا الطريق تحت الأرض ، وكنا نبحث عن مخرج حتى رأينا ضوء النهار ، فسرنا حتى وصلنا إليه فوجدنا هذه الفتحة ، ولكن الحجر كان يسدها من الخارج ولم نستطع زحزحته ، وفجأة وأنا أنظر من جوار الحجر رأيتكم تهرولون فى خوف ، قال « أصيل » : لقد كانت جماعة من الوطنيين تطارد بعض الفرنسيين العزل واتجهوا إلينا ، وأظنهم كانوا سيقتلوننا حتى لا نحدد للوطنيين إلى أين اتجهوا ، قالت « عائشة » : إذن فقد دبر الله نزولى للسرداب لأنه أراد لكم النجاة ، هتفت « زينب » : الحمد لله ، ثم استطردت فى سعادة : هل رأيت الفرنسيين يا « أصيل » ، هل يشبهون العفاريت كما قالت لى صديقتى ؟ .

لم يجبها أحد ، فقد كان كل واحد منهم غارقًا فى أفكاره وتوقعاته لما تحمله الدقائق والساعات القادمة ، ولكنهم انتبهوا فجأة على ظلال تقطع خيوط الضوء الضعيفة التى كانت تنبعث من الفتحة البعيدة ، ثم أصوات غريبة لم تألفها آذانهم ، همس « أصيل » : إنهم فرنسيون ! ، ارتعد الجميع ، قال عامر : يبدو أنهم رأوا فتحة السرداب .

قالت عائشة » : ماذا نفعل ؟ ! تلفتوا حولهم فى حيرة ، قال

« حامد » الذى كان يفكر بعمق وسرعة : فلنختبئ خلف الصخور ولننتظر .

هتف « أصيل » : أطفئى المصباح يا « عائشة » وهيا بنا ، أطفأت « عائشة » المصباح ثم اتجهت مع « أصيل » و « زينب » التى تعلقت بذراعها وتواروا خلف حجر ضخم ، فى حين اتجه « حامد » و« عامر » للجهة المضادة واختبئا فى فجوة عميقة مظلمة وقبع الجميع فى صمت ، وبعد برهة سمعوا أصوات أقدام ثقيلة لعدة أشخاص يقتربون وأصواتهم ترتفع ، كانوا يتحدثون بلغة لم يفهمها شركاؤهم بالمخبأ ، ظهر أحدهم وخلفه تتابع الآخرون كالأشباح فى ظلام السرداب ، الذى لا يقطعه سوى البصيص الضعيف المنبعث من الفتحة البعيدة ، كانوا يلهثون ويتهامسون فى خوف واضطراب ، فى حين كان أحدهم يتأوه متألمًا ، وما هى إلا لحظات حتى سقط على الأرض يتألم بشدة .

كانوا وكأنهم قد استقروا على البقاء مختبئين فى ذلك المكان حتى حين ، كانت « عائشة » تبتلع ريقها فى صعوبة من الخوف ثم شعرت فجأة بحركة إلى جوارها ، حركت رأسها ببطء لترى ثعبانًا ضخمًا يتحرك فى اتجاهها بهدوء شديد ، شعرت « عائشة » بجسدها يرتعد ، كادت تصرخ وتنطلق قافزة بسرعة ، ولكن هذا كان يعنى أن يلقوا حتفهم جميعًا على أيدى الفرنسيين ، حبست أنفاسها فى حين تصبب جسدها كله بعرق غزير ، أغمضت عينيها وأسلمت قدرها لله ، ظل الثعبان يقترب حتى أصبح بجوارها مباشرة ثم رفع رأسه ، وانقض

بسرعة على فأر صغير ثم جذبه وأسرع يبتعد مختفيًا فى داخل الجدار المتشقق .

فتحت « عائشة » عينيها وتنفست الصعداء ولكنها لم تكد تهدأ حتى وجدت « زينب » تجذبها من يدها بسرعة ، لم تفهم « عائشة » ماذا تريد « زينب » إلا حينما أطلقت الصغيرة عطسة عالية حادة صمت على أثرها الرجال الفرنسيون ثم تلفتوا حولهم وكانوا يبدون خائفين من ذلك المكان السفلى المظلم .

قرر « حامد » أن يستغل الفرصة بسرعة فأطلق ضحكة عالية مجلجلة ، بينما فهمه باقى الأولاد فورًا فنبح « عامر » وصرخت « عائشة » وصفر « أصيل » وأصدرت « زينب » صوتا كثغاء الماعز الصغيرة وكان متقنًا جدًّا حين خرج من نبراتها الحادة العالية .

صرخ الرجال الفرنسيون فى فزع ، وتخبطوا فى بعضهم البعض ، ثم هرولوا خارجين من السرداب تاركين خلفهم الجريح الراقد على الأرض يناديهم فى توسل ، وقد نزفت دماؤه وأعياه جرحه ولكن أحدًا منهم لم يعبأ به ، وهمست « عائشة » « لأصيل » : يبدو أنهم سيتركون الجريح ، مسكين لقد تخلوا عنه وتركوه ينزف داخل كهف تسكنه العفاريت الصارخة .

ظل الجريح راقدًا يتأوه فى ألم بعض الوقت ، ثم ألقى رأسه وأسدل جفنيه وصمت تمامًا ، قالت « عائشة » فى جزع : لقد مات ، تمتم « أصيل » : ربما . بعد برهة خرج « حامد »

و « عامر » ثم خرجت « عائشة » و « زينب » يتقدمهما « أصيل » واقتربوا منه فى حذر .

قال « حامد » : إنه إما ميتًا أو مغشيا عليه . اقترب « أصيل » منه واضعا كفه على صدر الجريح ثم قال : إنه حى ، ولكن جرحه كبير ، قال « عامر » : فلنتركه يموت ، أليس من الأعداء ؟ ، هتفت « عائشة » : هذا حرام إنه الآن مجرد إنسان جريح يتألم . أجابها « عامر » : ولكنه سيموت أردنا أو لم نرد . صاحت « زينب » : لماذا ؟ ! ألن نساعده ؟ أجابها « عامر » فى ضيق : إن أصحابه لم يستطيعوا مساعدته فكيف لنا أن نفعل هذا ؟

فكر الجميع برهة حتى قال « أصيل » : إن أفضل شىء هو أن نعود لبداية السرداب داخل حانوت والد « حامد » لأنه آمن مكان نخرج منه ، بينما يبقى أحدنا إلى جوار الجريح حتى يعود إليه الآخرون بالإمدادات اللازمة لمساعدته ، وأنا على استعداد للبقاء هنا على أن تسرعوا وتسارعوا لأن الطريق طويل . ثم سأل « عائشة » : هل تستطيعين العودة يا « عائشة » ، أجابت « عائشة » فى تردد : أين يوجد بالتحديد مكان هذه الفتحة القريبة على سطح الأرض ؟ ، أجابها « حامد » : إنها فى مواجهة دكان العطارة الكبير بعد منعطف حارة الحلوانى ، فكرت « عائشة » برهة ثم قالت : هكذا أستطيع أن أوجه نفسي تحت سطح الأرض وكأننى أسير فوقها من دكان العطارة إلى حيث منازلنا ، وهذا أمر سهل بإذن الله ، ولكن ليس معنا سوى

مصباح واحد والطريق مظلم وإن أُخذناه فإننا سنترك « أصيل » هنا وحده في الظلام . قال « أُصيل » : إننا في أُول النهار والضوء المتسلل من الفتحة القريبة يكفي ، وأُظنكم تستطيعون العودة إلى هنا قبل الغروب ، قال « حامد » : حسنًا – هيا بنا ، تمتم « عامر » : توكلنا على الله ، ثم ساروا متتابعين تتقدمهم « عائشة » التي أُصبحت أعلمهم بطرقات السرداب وخلفها « زينب » التي لا تترك ذيل فستانها .



١٦

مضت عدة ساعات من السير الشاق انقضت أكثرها ، وقد أحنوا ظهورهم حتى وصلوا إلى السلم المرتفع ، قالت « عائشة » : يبدو أن أحدًا قد أغلق السرداب علينا . سألها « عامر » فى قلق : ماذا تقصدين ؟ ! أجابته : لقد تركت مصباحًا مضاء عند هبوطى ووضعته بجوار الفتحة التى نزلنا منها كى يسهل على العثور عليها عند عودتى ، ولكننى لا أرى أى ضوء ، قال « حامد » : ربما انطفأ فقد مضى وقت غير قصير .

وصلوا إلى نهاية السلم ، هتفت « عائشة » : ألم أقل لكم ، إن المنفذ مغلق بألواح خشبية . هتف « حامد » : تراجعى إذن أنت و « زينب » يا « عائشة » ، اقترب « حامد » و « عامر » وأخذا فى دفع الألواح بكل ما أوتيا من عزم وقوة حتى تواربت فتحة صغيرة ، قال « عامر » : إن الألواح تصطدم بالجدار ولن تتزحزح أكثر من هذا من حيث ندفعها ، صاحت « زينب » : أنا أستطيع أن أمر من هذه الفتحة الصغيرة ! رفعها « حامد » و « عامر » حتى دفعاها من الفتحة ، هتف « حامد » : حاولى رفع الأخشاب يا « زينب » ، أو حتى مجرد تحريكها بعيدًا عن الجدار كى نستطيع دفعها من هنا ، مضى بعض الوقت و « زينب » تحاول وتلهث حتى قال « عامر » : حسنًا يا « زينب » هذا يكفى ، ثم صعد الثلاثة إلى المخزن ، تلفت « حامد » حوله ثم قال فى جزع : أين المؤن التى كانت بمخزن والدى ، هل أخذها الفرنسيون ؟ ! أجابته « عائشة » بسرعة : كلا

– كلا يا « حامد » ، لقد تبرع بها والدك للفقراء لتعينهم فى هذه الشدة ، بدا الرضا على وجه « حامد » .

قال « **عامر** » : ليذهب كل منا إلى منزله ويحضر كل ما يستطيع إحضاره للجريح ولنتقابل بعد ساعة هنا ، ثم نظر إلى « زينب » فى شفقة مكملا حديثه : وأرى ألا تحضرى مرة أخرى يا « زينب » ، هتفت « زينب » : كلا بل سأحضر ، إننى لست صغيرة ألم أنقذكم الآن ، ثم نظرت إلى « عائشة » فى توسل قائلة : هل ضايقتك يا « عائشة » ، ألم أكن فتاة مطيعة وساعدتك كثيرًا ، ابتسمت « عائشة » فى رقة مجيبة : حسنًا فلندعها تحضر يا « عامر » ، لقد بدأت معنا المغامرة من أولها فلتكملها معنا للنهاية .



١٧

كان « أصيل » جالسًا يتأمل الفرنسى الجريح فى هدوء ، كان شابًّا نحيفًا أشقر الشعر ، والذى أرسله حتى كاد يلامس كتفيه بينما ارتدى سترة زرقاء ذات أزرار معدنية وحذاء ثقيلاً ذا عنق مرتفع ، كان الشاب مطعونًا فى كتفه وقد تلطخت ملابسه ووجهه بالدماء ، شرد « أصيل » مفكرًا ، ترى ماذا يحدث الآن فوق سطح الأرض ؟ كان يسمع بين الحين والحين ما يشبه وقع أقدام فوق الأرض .

فجأة انتبه « أصيل » على صوت الفرنسي يتأوه فى ضعف شديد ثم بدأ يتحرك ببطء ، التفت « أصيل » بسرعة إليه وقد أطبق يديه على البندقية الحديدية الفارغة ، فتح الرجل عينيه ثم أغلقهما من جديد ، وهو يهمهم ويزوم فى تألم ، فتح عينيه ثم تلفت حوله وبدا وكأنه يتذكر كل ما حدث ، حاول الجلوس ، ولكنه لم يستطع إذ أنهكه النزيف الشديد ، وقعت عيناه على « أصيل » الذى كان يحمل بندقيته وقد تلاحقت أنفاسه فى قلق ، ظلا يتبادلان النظرات برهة ، ثم قال الفرنسي فجأة : هل ستقتلنى ؟ . اتسعت عينا « أصيل » ثم تمتم متسائلاً : هل تتحدثون لغتنا ؟ ،أجابه الفرنسى : إننى طالب وأدرس اللغة العربية كى أصبح مستشرقًا ، أنا لست جنديًا لقد استعانوا بى فى الحملة لأساعد فى الترجمة ، ولكننا جميعًا جنود وعلماء وفنانون ومترجمون نرتدى زيًّا متشابهًا ، هل ستقتلنى ؟ ظل « أصيل » ثابتًا بلا حراك وكأنه لا يصدق ما قاله الرجل دون أن يجيبه ، استطرد الفرنسى : إننى أعزل ، كما أننى جريح ولست محاربًا أقسم على ذلك ،

إننى مجرد تلميذ لدى الأستاذ « جان ميشيل دفنتور » وهو أستاذى وكبير المترجمين بالحملة .

ابتلع « **أصيل** » ارتباكه بسرعة ثم قال فى صرامة : ماذا تريدون منا أيها الفرنسيون ؟ ،أجابه الشاب وقد بدا متألما : إننا لا نريد بكم شرًّا ، إنما أتينا لنخلصكم من العثمانيين ، إننى أتعجب لأمركم ، ألا تريدون أن تصبحوا جزءًا من الإمبراطورية الفرنسية المتحضرة ؟ ! ، أجابه « أصيل » فى شدة : كلا ، إننا ولدنا أحرارًا وسنظل أحرارًا ، لسنا توابع لأحد ، إنكم مجرد مستعمرين طامعين ، كما أننا أصل تلك الحضارة التى تتباهون بها ، نحن لا نريد منكم شيئًا . هز الفرنسى رأسه ساخرًا ثم قال : لم يعد الأمر بين أيديكم ، لقد حسم الأمر واستولينا على الإسكندرية ، ولم يبق سوى أن نتوغل فى بلادكم ونحكم قبضتنا عليها ، هتف « أصيل » : مساكين – أغبياء ، أنتم تعتقدون أننا سنستسلم أو أن مقامكم سيطول هنا ، إن أمامكم خيارين إما أن ترحلوا عن أرضنا أو ندفنكم فيها ، أشاح الفرنسى بوجهه ساخرًا وهو يقول : طفل – مجرد طفل يقول كلام أطفال ، نظر إليه « أصيل » فى ثبات قائلاً : ليس طفلاً مَنْ كان عمره خمسة آلاف عام هى عمرى أحملها فى كيانى ، خمسة آلاف عام لم يقهرنى فيها مستعمر ولا ظالم ، حتى ولو كانت له الغلبة فى أول الأمر ، ربما كنت طفلاً ولكننى حفيد أحمس وتحتمس وصلاح الدين الأيوبى وعشرات غيرهم ، هل سمعت عن هؤلاء ؟ ، ونظر إليه الرجل نظرة طويلة

ثم سأله : هل تدرس التاريخ ؟ ، أجابه « أصيل » : إننا كلنا نحفظ تاريخنا ، شيوخا ونساء وأطفالاً درسناه أو لم ندرسه ، حتى البسطاء منا يحفظونه جيدًا .

سأله **الفرنسى** (فى إعجاب) : ما اسمك ؟ ، أجابه « أصيل » بلا مبالاة : أصيل وأنت ؟ . أجاب الفرنسى فى تباهى : كلود نيكولا أرنو ، وتحرك محاولاً الجلوس فآلمه جرحه حتى إنه صرخ ثم سأل « أصيل » فى ضيق : ماذا أنتم فاعلون بى ؟ ، أجابه « أصيل » فى هدوء : ماذا تعتقد ؟ هتف الرجل : هناك قواعد لمعاملة الأسرى ، كما أننى جريح ، قال « أصيل » فى تهكم : أظننا سنكون أكثر رحمة بك من زملائك الذين تخلوا عنك وفروا وتركوك لتموت وحيدًا هنا ، سكت الفرنسى فى حزن ثم أسدل جفنيه وهو يتألم فى صمت .

بعد قليل اشتدت آلامه حتى أنه بدأ يهذى ، كان يتحدث بالفرنسية ثم يقول بالعربية : أنا قادم لأسجل كل شىء عن أجمل بقاع الأرض لتقرأه كل الأرض ، ثم التفت إلى « أصيل » قائلاً : إننى أموت ، أرجوك — لو أننى مت انقلنى إلى أى مكان آخر أنا لا أريد أن أموت هنا ، كنت أعتقد أننى سأموت كهلاً ثريا مشهورًا على فراش وثير بين أفراد أسرتى أروى لهم الأمجاد التى حققها الفرنسيون فى الشرق ، وأسرد لهم العجائب التى رأيتها وسجلتها فى أرض الفراعنة ، تمتم أصيل : إنها أطماعكم التى ستؤدى بكم إلى الهلاك وسخرية التاريخ واحتقاره ، ثم اقترب من « كلود » فى شفقة محاولاً أن يساعده وكان قد بدأ يتأوه صارخًا من الألم .

بعد برهة سمعا هرجًا ومرجًا ، فإذا « بعامر » و « حامد » يظهران بين ممرات السرداب المظلمة ، وقد حمل « عامر » مصباحًا ودفع « حامد » عربة خشبية صغيرة ذات أربع عجلات كانت فى مخزن والده يستعين بها فى نقل الأجولة الثقيلة والبضاعة أحيانا ، سألهما « أصيل » : ما الأخبار ؟ أجابه « عامر » : إن « عائشة » و « زينب » فى انتظارنا بالمخزن ، وهما اللتان اقترحتا أن نحضر هذه العربة ونضع عليها الرجل ثم ننقله إلى أول السرداب كى نقوم بإسعافه ، إذ أن مراعاته وهو على هذا البعد أمر شاق للغاية ، قال « أصيل » فى ضيق : أعرف أنكما متعبان من الطريق داخل السرداب ، ولكن لا وقت لدينا كى تستريحا ، فالرجل فى حالة سيئة ، ومازال هناك طريق العودة ، والذى سيستغرق وقتًا طويلاً ، قال « حامد » وهو يهم برفع الرجل : لا بأس ، فلننقذ حياته قبل كل شىء ، هيا ساعدانى – ورفع الصبية الثلاثة الرجل ثم وضعوه على العربة الخشبية ، والرجل ينظر إليهم فى دهشة من بين آلامه وبدءوا فى رحلة العودة .

* * *

١٨

كانت « عائشة » بالمخزن ، وقد أوقدت موقدًا صغيرًا وضعت عليه إناء به قليل من الماء ، وبين يديها عدة أوشحة نظيفة كانت تلفها بعناية لتصنع منها أربطة لجرح الفرنسى ، ودلفت « زينب » إلى المخزن حاملة عدة لفافات بين يديها قائلة : لقد أحضرت بعض الطعام وزجاجة بها بعض العقاقير أعطاه الطبيب لأمى ليسكن آلامها عندما كانت تعانى من المرض منذ فترة طويلة ، وجدت الزجاجة لازالت مملوءة بهذا الدواء فأحضرتها ربما تنفع فى شىء ، وضعت « زينب » الأشياء ثم جلست وقد بدا عليها الحزن ، نظرت إليها « عائشة » ثم سألتها : ماذا بك يا « زينب » ؟ ، أجابتها « زينب » وقد طفرت من عينيها الدموع : إنها حمارتى ، مريضة للغاية ، تتألم وتتلوى ولا أدرى ماذا بها ! . أجابتها « عائشة » فى رقة : لا تخافى يا « زينب » ربما أتاها المخاض ، أى أنها ستلد فلا تقلقى ، فمن حكمة الله أن الحيوانات تلد وحدها دون مساعدة منا ، أومأت « زينب » برأسها فى اقتناع ثم قالت : لقد سألتنى أمك عنك يا « عائشة » فاضطررت لأن أقول لها : إن أخى « أصيل » مجروح وإننا نخفى هذا عن أمى كى لا تجزع ، وإننا نداويه وحدنا بالمخزن وقد أعطتنى دجاجة مسلوقة لنطعمها له ، فقالت « عائشة » فى سعادة : ما أروع قلوب الأمهات فى بلادنا ، إنها قادرة على حب كل أطفال الدنيا وإغراقهم حنانًا وعطفًا .

* * *

١٩

كان الطريق طويلاً ، يضيق فى مراحل منه ، حتى يصعب تحريك العربة الخشبية داخل ممرات السرداب الملتوية ، تفصد الصبية الثلاثة بالعرق ، فى حين كان الفرنسى فى غيبوبة يفيق منها بين الحين والحين على أثر خبطة قوية أو دفعة شديدة ، حتى بدا ضوء المخزن الضعيف أعلى السلم الطويل ، وتوقف « عامر » الذى كان فى المقدمة ثم قال : أعتقد أن الصعود على السلم سيكون شاقًّا للغاية وربما مستحيلاً ، قال « حامد » إذن ماذا نفعل ؟ – فكر الثلاثة برهة ثم قال « أصيل » : فلنتركه هنا فالبوابة قريبة ولنحضر الأشياء اللازمة كلها إلى هنا كما أنه هنا سيكون أكثر أمانًا .

تتابع الثلاثة على السلم حتى وصلوا إلى المخزن ، قال « أصيل » : لقد أحضرناه يا « عائشة » ولكنه أسفل السلم ، قال « عامر » : سنساعدكما فى نقل ما تريدان إلى حيث يوجد ، ثم نترككما أنت و « زينب » ، فالدور القادم من اختصاصكما ، أما نحن فيجب أن نذهب لنرى إلى ماذا وصل الحال بالخارج .

* * *

٢٠

عندما خرج الصبية إلى طرقات المدينة ، كانت كما لم يروها من قبل ، سادتها الفوضى والاضطراب ، وكان القتال قد توقف مؤقتًا ، فى حين تجمع الرجال من الأهالى كلهم بالميدان الكبير ، يلفهم صمت ثقيل ، هرول الثلاثة حتى وصلوا إلى حيث الجمع المحتشد ، تسللوا وسط الرجال ليروا ماذا يحدث ، وكان موقفًا مهيبًا تزداد هيبته مع كل دقيقة تمر ، وقد وقف السيد « محمد كريم » ورأسه مرفوع ينظر إلى القائد الفرنسى فى تحد وعناد ، على حين يحاول القائد الأكبر التودد له ، كان هناك مترجم فرنسى ، عجوز يقوم بترجمة حديث القائد الفرنسى « لكريم » وحديث « كريم » للقائد « نابليون بونابرت » ، تمتم « أصيل » : لابد أن هذا هو نابليون ، أما هذا المترجم فلابد أنه « دفنتور » الذى ذكره « كلود » .

قال المترجم العجوز بالعربية : إننا لم نأت بغرض الاستيلاء على بلادكم أو القضاء عليكم ، إنما أتينا لتخليصكم ، وقد أصدر القائد « بونابرت » مرسومًا باللغة العربية والتركية والفرنسية ، يوضح لكم فيه سياستنا وأغراضنا بصدق ، وقد قمنا بطبع مئات النسخ من هذا المنشور لتعلق فى أنحاء بلادكم ليقرأه الجميع ، فإننا أتينا عاقدين العزم على أن نساعدكم ونحرركم ، ونمدكم بكل مظاهر الحضارة والرفاهية .

نظر « كريم » إلى « نابليون » نظرة ساخرة ثم هتف : هل يظن نابليونكم هذا أن باستطاعته خداعنا بهذه الكلمات المعسولة ؟ قام العجوز بترجمة كلمات « كريم » فى خجل للقائد الذى سمعه وهو

يصوب نظرات نارية لـ « كريم » متظاهرًا بالود والسماحة ، صاح « كريم » : قل له أيضًا إننا قوم لا نستطيع أن نحيا وقد انحنت هاماتنا ، وإننا نثأر ولابد من كل أعدائنا ، ونقاوم حتى آخر قطرة فى دمائنا ، فإذا أردتم أرضنا فلتقتلونا جميعًا أولاً ، كما يجب أن تعلموا أنكم رغم قوتكم ، فإننا نحن الأقوى لأننا أصحاب الأرض - أصحاب الحق ، لهذا فستكون الغلبة لنا فى النهاية .

نظر « نابليون » إلى « محمد كريم » نظرة إعجاب طويلة ، ثم اقترب منه ومد يده له مصافحًا ، ثم قال بلغته الفرنسية ما ترجمه العجوز قائلاً : لقد أمر القائد « نابليون بونابرت » أن يطلق سراح « السيد كريم » فورًا ، على أن يظل محتفظًا بمنصبه كحاكم للإسكندرية ، كما يعتبره « نابليون » وجميع الفرنسيين صديقًا منذ اليوم .

نظر « كريم » إليهما نظرة طويلة ، وسمع المصريون ما لم يقله بلسانه ، ولا ترجمه العجوز للقائد الفرنسى ، ثم انصرف كل المصريين فى صمت غريب وكأنهم يدبرون أمرهم سرًّا دون حديث .

ظل القائد الفرنسى القصير القامة واقفًا يتابعهم فى دهشة ، ثم قال لمترجمه العجوز فى شرود : إنها أمة عجيبة ومدهشة ، هادئة وباسلة ومعتزة بنفسها لم أر شيئا كهذا من قبل ، فردّ العجوز وكان مؤرخًا ودارسًا لتاريخ الشرق والغرب بعناية : أجل ، فإن لديهم رباطة جأش مذهلة ، فلا شىء يهزهم ، وليس الموت عندهم أكثر من رحلة عبر المحيط عند الرجل الإنجليزى ، ولو كنت دارسًا للتاريخ لرأيت مثل

هذا فى تاريخهم الطويل ، فإن هذه الأمة العريقة الصامدة سر من أسرار الكون يا سيدى ، شرد القائد بونابرت برهة وكأنه غاب عن المكان بأسره فابتسم العجوز قائلاً : هل وجد سيدى شيئًا فى هذه الأرض لم يكن يعرفه أو يعد له العدة ؟ ، نظر إليه القائد دون إجابة ، ثم ألقى للضباط أوامره قائلاً : أريد أن أتجول فى تلك الإسكندرية التى طالما سمعت عنها .

سار القائد وحوله الضباط والحرس فى موكب صغير يتفقد تلك المدينة العنيدة ، ثم طلب من أحد المرشدين أن يوصله إلى منزل القنصل الفرنسى فى مواجهة الميناء الشرقى ، لكى ينزل فى مسكنه مؤقتًا ، خيره المرشد أن يتخذ الطريق الموازى للبحر أو الطريق الضيق وسط المساكن ، فاختار « نابليون » الطريق الضيق بكثير من الغرور والشغف وقليل من الخبرة بذلك الشعب العريق ، فما إنْ دلف « نابليون » إلى أحد الشوارع الضيقة حتى انهالت عليه وعلى ضباطه طلقات الرصاص من أماكن متفرقة يصعب تحديد مصدرها .

عم الهرج والمرج وشهر الجنود أسلحتهم فى انتظار أوامر القائد لمهاجمة المنازل والديار ، نظر القائد فى ذهول إلى حذائه وقد أصابته رصاصة ثم تلفت حوله برهة قال بعدها للجنود : أين ستبحثون ؟ إنها مئات المنازل خلفها مئات العيون والنفوس الثائرة ، يبدو أن مهمتنا ستكون أكثر صعوبة مما توقعنا ، لقد كان مترجمى العجوز على حق ، إنها أرض غامضة وشعبها سر من أسرار هذا الكون .

٢١

فتح « كلود » عينيه ثم نظر حوله وهو يتحسس كتفه المضمدة بالأربطة ، طالعه وجها « عائشة » و « زينب » القلقتين ، تمتم : وكأن كل ما حدث لى لم يكن حلمًا ، العربة الخشبية والسرداب الطويل ، هل أنا فى أرض الجن ؟ هل أنتما من الجنيات الطيبات ؟ ، ابتسمت عائشة قائلة : حمدًا لله على سلامتك ، لسنا جنيات أيها الفرنسى الذى يتحدث العربية ، مدت « زينب » يدها إليه بالطعام هاتفة : هل أنت جائع ؟ ! نظر « كلود » ليد « زينب » الممدودة إليه بالطعام ثم قال : وطعام أيضًا ؟ ! هذا كثير ، إننى لم آكل منذ يومين .

اتكأ الشاب على ذراعه السليمة ثم شرع فى تناول الطعام فى شراهة ، تساعده « زينب » فى رقة ووداعة ، سألته « عائشة » : هل يمكنك أن تصعد معنا على هذا السلم لتصبح أقرب من سطح الأرض ، لأن التهوية هنا سيئة ولن تساعدك على الشفاء ، قال « كلود » فى ثقة : أجل ، إننى أستطيع بعد تناول هذا الطعام اللذيذ أن أصعد إلى القمر ، كما أننى أريد أن أغادر هذا المكان ، لأنه يصيبنى بالضيق .

ارتقت « عائشة » السلم حاملة المصباح وخلفها « زينب » وبين يديها الأشياء التى أنزلوها إلى السرداب ، وخلفهما كان « كلود » يزحف ببطء حتى وصلوا إلى نهاية السلم ، قالت « عائشة » « لكلود » الذى أنهكه الصعود زحفًا : فلتبق هنا حتى نعد لك مكانًا بالمخزن ، لأنه مقلوب رأسًا على عقب ، ولكن قبل أن تتم حديثها سمعوا فجأة صوت باب الحانوت الحديدى ينزلق محدثًا صريرًا عاليا ، هتفت

« عائشة » : هناك مَنْ سيدخل إلى الحانوت ، انتظر هنا بلا حركة أو صوت ، صعدت « عائشة » و « زينب » إلى المخزن ، كان عم « حسين » والد « حامد » وقد فتح باب الحانوت ودخله ثم دخل إلى المخزن ليجد « عائشة » و « زينب » ، وقد جلستا فوق عدة ألواح خشبية تغطى فوهة السرداب . نظر إليهما الرجل فى دهشة ثم قال : ماذا تفعلان هنا يا بنات ؟ ، ارتبكت « عائشة » ثم قالت : لقد كنا خائفين من الفرنسيين ، فقادنا « حامد » إلى هنا وسمح لنا أن نختبئ بالمخزن ، تلفت الرجل حوله ثم قال : وأين تلك الحفرة الكبيرة التى تقول أم « حامد » إنها وجدتها بالمخزن ، وفزعت منها وغطتها بالألواح الخشبية ؟ . هتفت « زينب » : إنها حفرة صغيرة جدًّا ، لا تقلق يا عمى ، نظر الرجل إلى « زينب » فى شفقة ثم ترقرت عيناه بالدموع ونكس رأسه فى صمت ، نظرت « عائشة » إليه فى جزع ثم صرخت : أحمد !! هل حدث لأحمد مكروه ؟ ! ، تمتم الرجل بقول اللّٰه تعالى : ﴿وَ لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ ، إنا للّٰه وإنا إليه راجعون ، أجهشت « عائشة » بالبكاء فى حين نقلت « زينب » بصرها بينهما فى بلاهة ثم قالت للرجل : ماذا حدث لأحمد أخى يا عم حسين ؟ انصرف الرجل فى حزن ، وما إن انصرف حتى فتحت « عائشة » السرداب لتجد « كلود » وقد حبس أنفاسه ، نظرت إليه « عائشة » فى غيظ وكراهية وقد امتلأ وجهها بدموعها ثم هتفت : لماذا قتلتم أحمد ؟ لماذا ؟ لقد كان يدافع عن أرضه وبلده وأهله ، أحنى « كلود » رأسه

فى خجل ثم قال لها : أرجوك أن تسمعينى جيدًا أيتها الفتاة المصرية ، إن كل الجنود الفرنسيين هم بشر مثلكم ، ولكنهم مضطرون لطاعة القواد والذين يسخرونهم لتنفيذ كل ما يرونه صوابا ، ولكن يبدو أن قائدنا قد شط كل الشطط هذه المرة ، فأنتم قوم لا تستحقون شيئًا من هذا ، أنا أعتذر لكم بالنيابة عن كل رجل فى الحملة التى شنها « نابليون » عليكم ، ليس الضحايا منكم فقط ولكننى رأيت بعينى رأسى عشرات الجنود الفرنسيين يموتون غرقى أثناء هبوطنا إلى شواطئكم ، وعشرات أخرى يموتون عطشًا فى صحرائكم الغربية أثناء قدومنا إلى أسواركم ، ثم آخرون ماتوا أسفل حصونكم المنيعة ، حتى قوادنا ، فقد أصيب الجنرال كليبر أسفل الأسوار بجرح كبير من رصاصة فوق عينيه ، وكذلك الجنرال « مينو » أصابته الأحجار المتساقطة بسبعة جروح ، كل هؤلاء الضحايا لا ذنب لهم سوى أنهم ينفذون الأوامر الغبية ، والتى يكونون مضطرين لتنفيذها فى أغلب الأحوال ، كل هؤلاء القتلى لهم أمهات وزوجات وأخوات وأبناء فى فرنسا الوطن سيتفطرون حزنًا عليهم ، مسحت « عائشة » وجهها ثم قالت فى إصرار : ولكنكم سترحلون قريبًا عن أرضنا ، أجابها « كلود » : هذا ما أصبحت متيقنًا منه فلا طاقة لنا بشعب مثلكم ، إنكم مزيج عجيب من القوة والبأس مع الرحمة والمروءة ، كان بإمكانك أن تفشى لهذا الرجل سرَّ وجودى لديكم ، إننى مدين لكم بأشياء كثيرة ويجب أن أفى بهذا الدين يوما ما .

٢٢

كان « أصيل » جالسًا وقد كسا وجهه حزن عميق وسط جمع من الرجال فى منزل الشيخ « حجازى » الذى نظر إلى « أصيل » ثم قال له : يا بنى إنك يجب أن تفخر أن أخاك مات حاملا سلاحه ، استشهد وهو يحمى أرضه وعرضه ، أومأ « أصيل » برأسه قائلاً : ولكننا يجب أن نثأر له ولكل من استشهدوا معه ، أجابه الشيخ : أجل يا ولدى ، إن الأمر لم ينته بعد ، قال أحد الرجال : لقد بدأ الفرنسيون فى الزحف إلى القاهرة ، وقال آخر : هل قرأتم المنشور الذى وزعوه فى أنحاء البلاد ، إنهم يحاولون خداعنا ، قال الشيخ : إنهم يتظاهرون بالسماحة والحب ، فهم يوضحون لنا أنهم يحترمون الإسلام وشعائره ، وكذلك فإنهم يحاولون تحمل عدائنا السافر فى صمت وعلى مضض دون استعمال للعنف ، كى يظلوا فى مظهر الأصدقاء القادمين لنجدتنا ، كى نتعاون معهم ونسلم بوجودهم ، فردّ الرجل : ولكن على الفور من وصولهم إلى القاهرة لن يمكنهم تجاهل المقاومة ، وسيزيحون القناع المزيف بسرعة ، فإذا كانت أسلحتنا قد نفدت فلازالت بقية أقطار البلاد تضج بالسواعد الفتية وبراميل البارود والذخيرة ، سأله الشيخ : وماذا إذن سيكون دورنا ؟ أجابه الرجل بسرعة : عندما يتجه الجيش الفرنسى كله للقاهرة ستبقى هنا حامية منهم ، وأظن أن اصطيادهم سيكون سهلاً ، تمتم الشيخ : فليساعدنا اللّه .

٢٣

مضت عدة أيام تماثل خلالها « كلود » للشفاء تمامًا ، كانت « زينب » تحضر له الطعام فى كل يوم بالمخزن حتى أصبحا صديقين ، قالت له « زينب » فى رقة : هل تعلمنى لغتك ؟ ابتسم « كلود » قائلاً : عندما تعلمت لغتكم ودرستها اكتشفت أنها أجمل لغات الأرض وأغناها ، ابتسمت « زينب » ثم قالت له : لقد أصبحت صديقى ، لذلك فقد أسميت الجحش الذى ولدته حمارتى « كلود » ! ، ضحك « كلود » ملء شدقيه ، قالت « زينب » فى براءة : كنت أعرف أن هذا سيسعدك ، إننى أطعمه كل يوم بنفسى كما أطعمك ولكنه يأكل أكثر منك .

دخل « أصيل » إلى المخزن ، هتف كلود : أصيل ، مرحبًا – أين أنت لم أرك منذ يوم تعارفنا بالسرداب ، نظر إليه « أصيل » برهة ثم قال له فى حدة : ألم تتماثل للشفاء ؟ هيا ارحل عن هنا ، صاحت « زينب » : « أصيل » – ما هذا ؟ ! إنه صديقى ، إنه لطيف ويحبنا ، إنه ليس شريرًا كباقى الفرنسيين ، سأل « كلود » « أصيل » : أرجوك أن تخبرنى بالأخبار بالخارج ، أجابه « أصيل » على مضض : إن جنودكم يزحفون إلى القاهرة ، هتف « كلود » : وماذا عن نابليون ؟ ، قال « أصيل » : لم يرحل بعد فقال « كلود » : حسنًا ، إننى أريد أن أقابله قبل رحيله ، سأله « أصيل » فى دهشة : لماذا ؟ ، أجابه « كلود » : يجب أن ينبهه شخص ما لفداحة الجرم الذى يرتكبه فى حقكم ، إن التاريخ سيصمه للأبد بالعار لذلك القرار الظالم ، ثم قال

فى ترج : هل يمكنك أن تدعنى أخرج من هنا بسلام يا أصيل ؟ ، قال « أصيل » فى سخرية : لكى تهرب وتخبر أصدقاءك الفرنسيين أنك استطعت خداع بعض المصريين السذج ، هتف « كلود » : كلا ، كلا يا « أصيل » أقسم برأس المسيح أننى معكم منذ اليوم ، نظر إليه « أصيل » فى دهشة ثم قال : هل أنت جاد يا « كلود » ؟ ! أجابه « كلود » : أجل ، لقد رأيت منكم فى الميدان ما لم أسمع به فى تاريخ غيركم من الأمم ، ورأيت منكم هنا ما لم أره من أهلى وعشيرتى ، ساعدنى يا أصيل ولن تندم ، فكر « أصيل » برهة ثم قال له : لا يوجد حل سوى أن تهرب عبر السرداب ، قال « كلود » فى حيرة : ولكننى لا أعرف طرقاته ؟ ! قالت « زينب » : إن « عائشة » هى التى تحفظ ممرات ذلك السرداب التى يشبه بيت جحا ، فلتوصلك إلى حيث المخرج الآخر يا « كلود » ، عبث كلود بضفيرتيها مداعبًا ثم قال : وهل توافق « عائشة » ؟ .

فى اللحظة نفسها دخل « حامد » و « عامر » و « عائشة » فقالت « عائشة » فى رقة : وعلى أى شىء توافق « عائشة » لو كان الشىء فى سبيل البلاد فأنا أوافق دون أن أعرف ، روى « أصيل » لهم ما يريد « كلود » أن يفعله ، قالت « عائشة » فى حماس : إذن هيا ، قال « حامد » : سأحضر معكما حتى لا تعود « عائشة » وحدها ، كما أن هناك شيئًا أريد أن أحضره معى من السرداب .

دخل « كلود » وخلفه « عامر » تتقدمهما « عائشة » سالكين طرقات السرداب التى سلكوها من قبل ، حتى بدا عن بعد الضوء

المنبعث من الفتحة الأخرى ، قال « كلود » فى امتنان : يكفى هذا ، أستطيع أن أستمر بعد ذلك وحدى فى اتجاه الضوء ، فلتعوذا أنتما ، هتفت « عائشة » : لا تنزع الأربطة من فوق جرحك قبل ثلاثة أيام ، ابتسم « كلود » ثم التقط يد « عائشة » وقبلها فى أدب قائلا : وداعا ياصاحبة اليدين الحنونتين ، سنتقابل مرة أخرى ، ربما قريبًا جدًّا وربما أبقى حينئذ معكم للأبد .



٢٤

خرج « كلود » من السرداب يشق طريقه فى طرقات المدينة دون أن يشعر بأصيل وعامر اللذين كانا يراقبانه عن بعد ، توقف « كلود » عند أول جماعة رآها من الجنود الفرنسيين ، سألهم بالفرنسية عن شيء فأشاروا إليه ، فاتجه إليه فورًا والصبيان فى أثره حتى وصل إلى غايته ، كان القائد يجمع فرقته ويستعدون لمغادرة الإسكندرية ليلحقوا بالفرق المتقدمة إلى القاهرة ، أقبل عليه « كلود » ثم نادى فى الناس بالعربية : أيها الناس فلتسمعوا ما أقوله لقائدى الفرنسى الكبير « نابليون بونابرت » .

التفت إليه « نابليون » وقد سارع إليه مترجمه العجوز الذى صاح : كلود ، أين كنت ؟ ، لقد اعتقدت أنك قتلت ، قال كلود : بل كدت أقتل وأنقذنى المصريون نظر إليه « نابليون » مستنكرًا حديثه ، فاستطرد « كلود » حديثه بالعربية ، بينما المترجم ينقل لنابليون كل كلمة يقولها الشاب الفرنسى الذى قال فى حسم : إننى عندما وافقت على القدوم مع الحملة ، كانت أمنيتى أن أدرس وأترجم فقط ، ولكنى وجدت نفسى أرتدى الزىّ العسكرى وأحارب هؤلاء المواطنين المسالمين وسط الجنود والضباط الفرنسيين والأوامر يجب أن تنفذ بلا نقاش . ثم نظر كلود إلى نابليون قائلاً : لقد أخطأت بقدومك هنا لتحرم هذا الشعب من حقه فى الحرية ، هتف المترجم العجوز بالعربية : لقد جئنا لنساعدهم على التحرر والفوز بحريتهم الكاملة ، صاح « كلود » : كلا – هذه ادعاءات وشعارات زائفة تبررون بها أطماعكم وتباريكم

مع الإنجليز فى الحصول على المستعمرات ، إن كنتم صادقين فى مشاعركم تجاه المصريين فلترحلوا عنهم ولتدعوهم يعيشون فى سلام ، أما أنا فسأبقى هنا بقية حياتى ، فلقد أصبحت مدينًا لهذا البلد بحياتى وبكل ما تعلمته وما سأتعلمه ، نظر إليه « نابليون » شزرًا ثم همس لمترجمه بكلمات قال العجوز بعدها بصوت مرتفع وبالعربية : إن القائد الأعظم والإمبراطور المبجل يريد أن يثبت للمصريين حسن نوايانا ، ولذلك فسندع ذلك الفرنسى يحيا وسطكم ، ولن نعاقبه كخائن للقوات الفرنسية ، هم « كلود » ليتحدث ولكن القائد أشار بيده ، فقال العجوز : انتهت مقابلة القائد معك ، ارحل إلى حيث تريد .

انصرف « نابليون » بعد أن أعطى إشارة خفية لعدة رجال من فرقته يتسمون بالقوة والوحشية ، أدرك « كلود » بسرعة معنى تلك الإشارة عندما وجد الرجال يتجهون نحوه والشرر يتطاير من أعينهم ، تلفت « كلود » حوله فى ذعر فوقعت عيناه على أصيل وعامر يشيران إليه صائحين : هيا معنا بسرعة يا كلود ، إننا نحفظ طرقات مدينتنا وسيفقدون . أثرك – هيا .

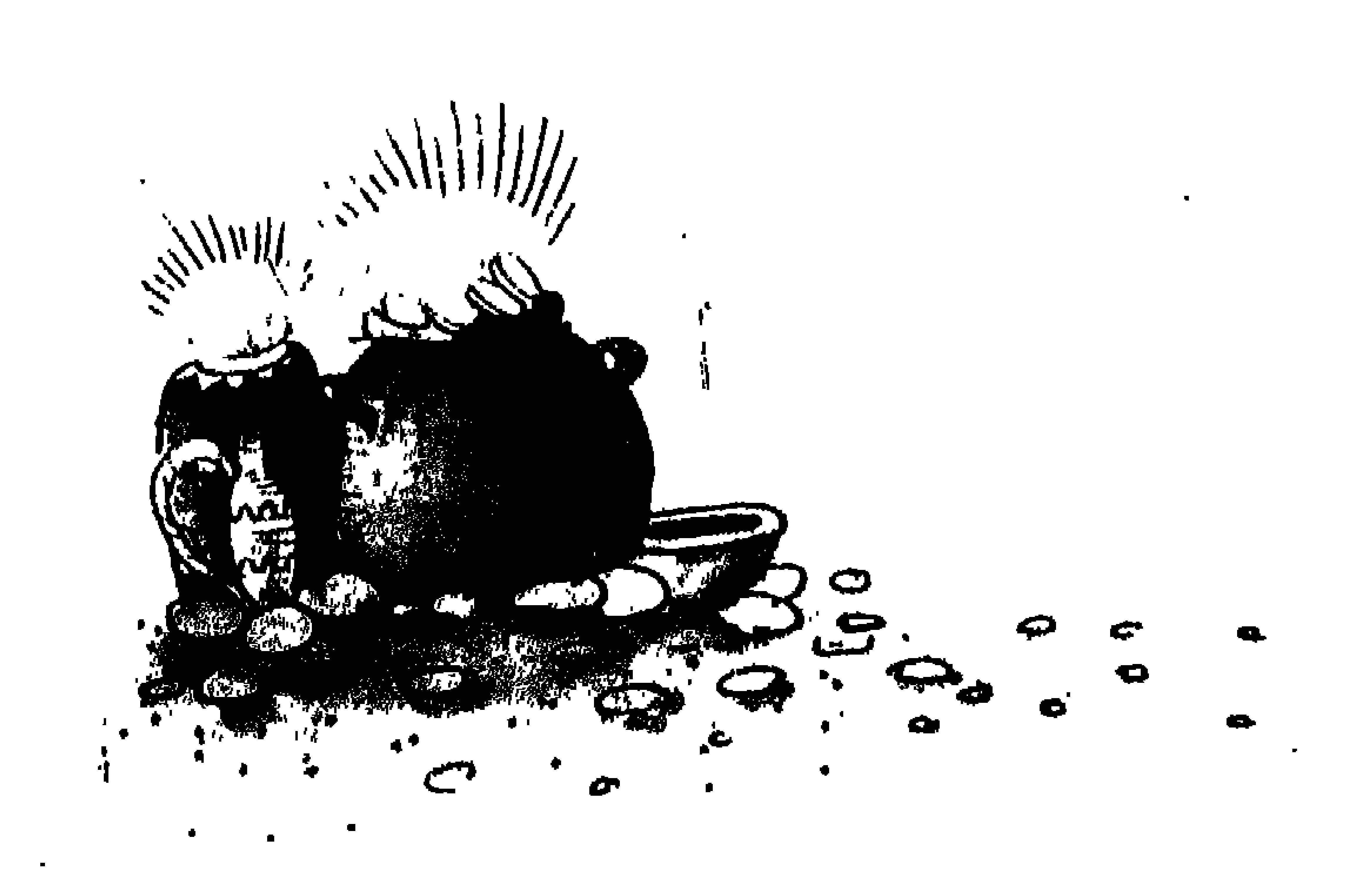
ظل الثلاثة يجرون فى الشوارع الضيقة ، ويغيرون طريقهم من آن لآخر حتى وصلوا إلى المخزن ، فدخل « كلود » وهو يلهث ، ثم ألقى بجسده على الأرض فى إعياء وهو يقول فى حزن : إننى ألوذ بكم من قومى لأنهم يريدون قتلى ، هل تقبلوننى واحدا منكم ، أحارب فى صفوفكم إن شئتم . ابتسم « عامر » و« أصيل » من بين

أنفاسهما المتلاحقة ثم قال « أصيل » : لقد أثبت حسن نواياك وصدقك يا كلود فمرحبًا بك .

بعد قليل برز رأسا « حامد » و« عائشة » من فتحة السرداب يحملان معًا آنية أثرية ضخمة ، صعدا إلى المخزن ووضعاها على الأرض بحرص ، وما إن شاهدا « كلود » حتى شهقت « عائشة » : كلود !! ما الذى أتى بك إلى هنا ! ؟ أجابها « أصيل » : لقد تحدى « كلود » قائده ودافع عن حقوقنا فأمر بقتله ، وهو يحتمى بنا لأنهم يبحثون عنه ، ولكن ما الذى أخركما فى طريق العودة ، لقد ذهبنا خلف كلود إلى حيث القائد ، وعدنا إلى هنا وأنتما لم تصلا إلا توا ؟ . قال حامد : لقد ذهبنا إلى حيث الأوانى الأثرية وكنز العملات الذهبية وأحضرنا بعضًا منها إذ أنها تساوى ثروة ربما استطاع أفراد المقاومة الاستفادة منها فى شراء السلاح والبارود والخيول .

فجأة سمعوا هرجًا ومرجًا وخبطات عنيفة على بوابة الحانوت الحديدية المغلقة ، هتف « كلود » : إنهم كانوا وراءنا ، لقد استطاعوا اقتفاء أثرنا . دفعه « عامر » هامسًا : اختبئ بسرعة فى السرداب وسنغلق الفوهة بالأخشاب ، هبط « كلود » ثم مالبث أن خرج هامسا : أعطونى جرة المال كى أخفيها معى وإلا استولوا عليها ، ألقاها « حامد » إليه ثم أخفوا مدخل السرداب ببراعة ، حطم الفرنسيون بوابة الحانوت ودخلوا فى ثورة ، كان أحدهم يسأل الأولاد بلغته الفرنسية عن « كلود » ولكنهم ادعوا عدم الفهم لما يقوله ، بل والجهل التام بما يحدث حولهم ، فى حين كان أحد الفرنسيين يتحدث ويشير بأصبعه

إلى الحانوت وكأنه يؤكد أنه رآه يدخل إلى هذا المكان ، انتشروا بالحانوت والمخزن يبحثون فى كل ركن ، ثم انصرفوا وفى أعينهم نظرة شك وريبة من هؤلاء الأطفال الواقفين ينظرون إليهم فى ثبات بغير خوف أو جزع .

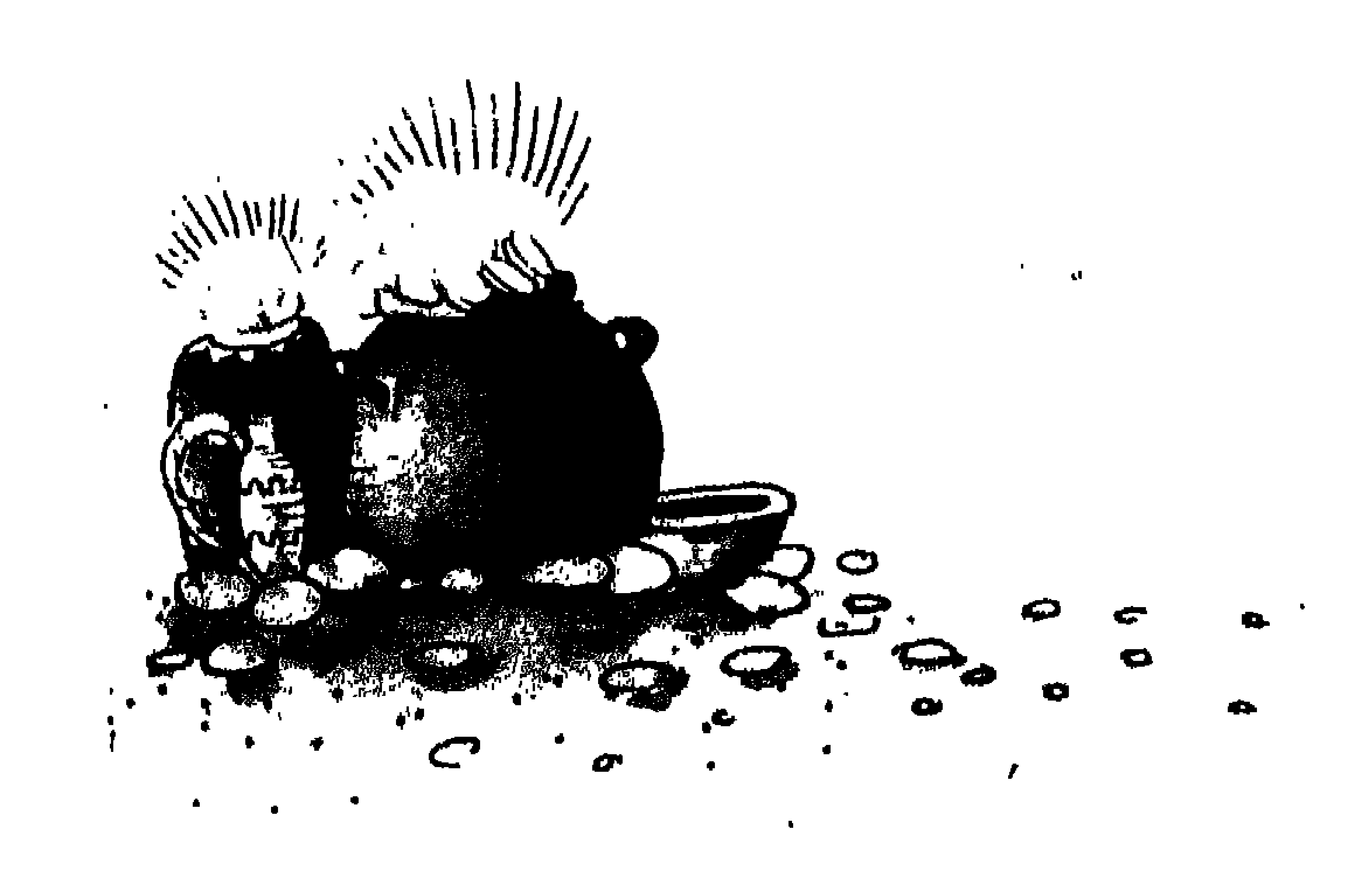


٢٥

جلس الأصدقاء يتحدثون همسًا ووسطهم كان « كلود » مرتديًا جلبابًا وقد قص شعره لتصبح هيئته كهيئة المصريين ، وكان « أصيل » يخبره بآخر الأنباء ثم قال معلقًا : الجميع يشعر أن الجنرال « كليبر » يشعر بالضيق لترك « نابليون » إياه حاكمًا عسكريا على الحامية المتبقية بالإسكندرية وذهابه بدونه لفتح القاهرة ، وللأسف فإنه يصب هذا الضيق على المصريين ، ربما لأنهم هم الذين أصابوه بجراحة والتى شجعت « نابليون » على ترشيحه للبقاء ، ولكنه بدأ يتماثل للشفاء ، وبدأ انتقامه من المصريين فى صمت .

تمتم « كلود » : إن « كليبر » قاسى القلب ، ولا يهمه القناع الذى يتمسك به « نابليون » فى معاملته للمصريين ، ثم سأل أصيل : ألم تصل أخبار من القاهرة ؟ أجابه أصيل فى أسى : إن جنودكم يستولون بالعنف على كل شىء فى طريقهم ، ويقاتلون المماليك فى شراسة ، أومأ « كلود » برأسه فى حزن قائلاً : كنت أعرف أنه كلما ازدادت مقاومتكم ، استعمل نابليون كل الأساليب اللا آدمية حتى يصل إلى غايته ، ثم قال فى حسم : أعتقد أنهم قد نسوا كل شىء عنى ، وأستطيع الآن أن أخرج من سجنى هذا لأفعل أى شىء ذى فائدة ، يجب أن أرد جميلكم ، سألته « عائشة » : وماذا ستفعل يا « كلود » ؟ ، أجاب « كلود » فى شرود : هذا ما أفكر فيه بعمق ، ثم التفت إلى « زينب » وعلى شفتيه ابتسامة رقيقة ليسألها : كيف حال كلود الصغير ؟ ! ضحكت « زينب » مجيبة : إنه فى خير

حال ، لكنه لا يشبع أبدًا ، قال « كلود » فى تأثر : لقد كان لدى مهر صغير فى مزرعة والدى بالريف فى جنوب فرنسا ، كنت أحبه وحزنت كثيرًا لفراقه ، لقد ضحيت بأشياء كثيرة حتى أنضم لهذه الحملة ، ولكن عذرى أن « نابليون » أقنع فرنسا وكل الفرنسيين أن هذا هو عين الصواب ، كما أقنع الجميع بأشياء كثيرة عن المصريين عرفت مدى خطئها عندما عاشرتكم وبقيت وسطكم مدة كافية ، ثم نظر إلى الأولاد فى حب وحماس قائلاً : هل ستساعدوننى ؟ ، هتفوا بسرعة : أجل - بالتأكيد ، تمتمت « زينب » الصغيرة : هل سترحل عندما نطرد جيشكم من بلادنا ؟ ، أجابها « كلود » فى يقين : إننى لن أرحل عن هذه الأرض ، إما أن أحيا هنا أو أموت هنا .

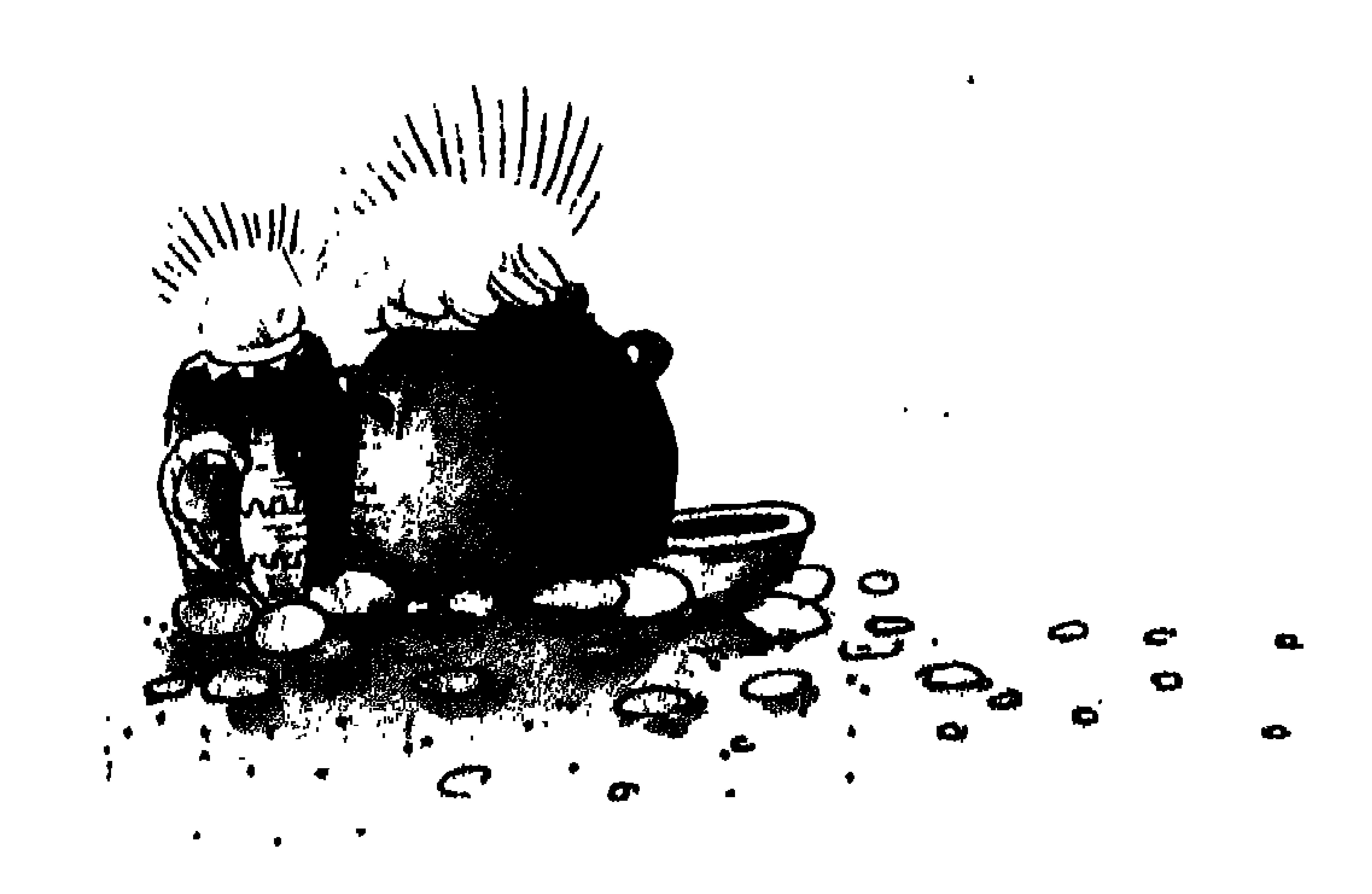


٢٦

كانت « زينب » واقفة إلى جوار « عائشة » التى كانت تعد بعض الطعام خلسة لكلود همست « زينب » : ضعى بعض العسل الأبيض ، إن كلود يحبه ، ضحكت « عائشة » ثم قالت تداعب « زينب » : وأنت تحبين كلود أكثر من العسل ، أليس كذلك يا « زينب » وكأننا نعرفه منذ سنوات ، ابتسمت « زينب » فى خجل قائلة : إننى آكل طعامى كله فى كل يوم حتى أكبر بسرعة وأتزوجه ، ضحكت « عائشة » وانصرفت الفتاتان فى طريقهما إلى حيث اجتماعهم اليومى بالسرداب لوضع خطة محكمة ينالون بها من الفرنسيين .

كان « كلود » قد أعد خطته للنيل ولو ببعض السلاح والبارود من القوات الفرنسية تمكنهم من الاستمرار فى مقاومتهم ، سأله « عامر » فى قلق : ولكن ماذا لو لم يقتنع الجنود بحديثك وأسروك ؟ ! قاطعه « كلود » : « لا تخف يا « عامر » المهم أن يكون كل منا قد عرف دوره بالضبط ، قالت « عائشة » فى ضيق : وأين دورنا ؟ ! . التفت إليها « كلود » قائلاً : إنك رائعة أيتها الفتاة التى تحمل فى بشرتها سمرة النيل وفى رقتها نسمات البحر وفى عينيها دفئا وحنانا يكفيان ألف أخ وألف ابن ، ولكن المهمة شاقة وخطيرة ولا مكان فيها للفتيات ، تكفى دعواتك لله أن يوفقنا . هتف « حامد » : إذن — هيا بنا فإسماعيل ينتظرنا خلف الجامع الكبير لنقابل باقى الإخوة . قال « أصيل » : لقد تأخرنا هيا . قام « أصيل » و « حامد » يتبعهما « عامر » ثم « كلود » الذى استدار مرة أخرى إلى « عائشة » هامسًا :

لو قدر الله لى النجاة ، فإننى سأعتنق الإسلام وأعيش وسطكم ، وأعمل حتى أجمع مالاً يكفى مهرًا كما تنص الشريعة الإسلامية ثم أتزوج من فتاة أجد فيها مصر ، بكل جمالها وكل حبها وكل الأشياء الرائعة التى عرفتها عنها منذ قدومى إليها .



٢٧

سار الأربعة يتوارون بظلمة الليل الذى غاب محاقه خلف سحابات صيفية ساحلية مفتتة ، وصلوا إلى الجامع الكبير ، أطلق « عامر » صفيرًا متقطعا ، فخرج من خلف الجامع فتى يافع أشار لهم بيده فتبعوه على الفور ، دخلوا إلى منزل صغير أضىء بمصباح خافت ، ولكن القلوب التى داخل ضلوع الرجال المجتمعين فيه كانت بها نيران تضىء الأرض حتى تصل ألسنة لهيبها إلى فرنسا خلف البحر المتوسط .

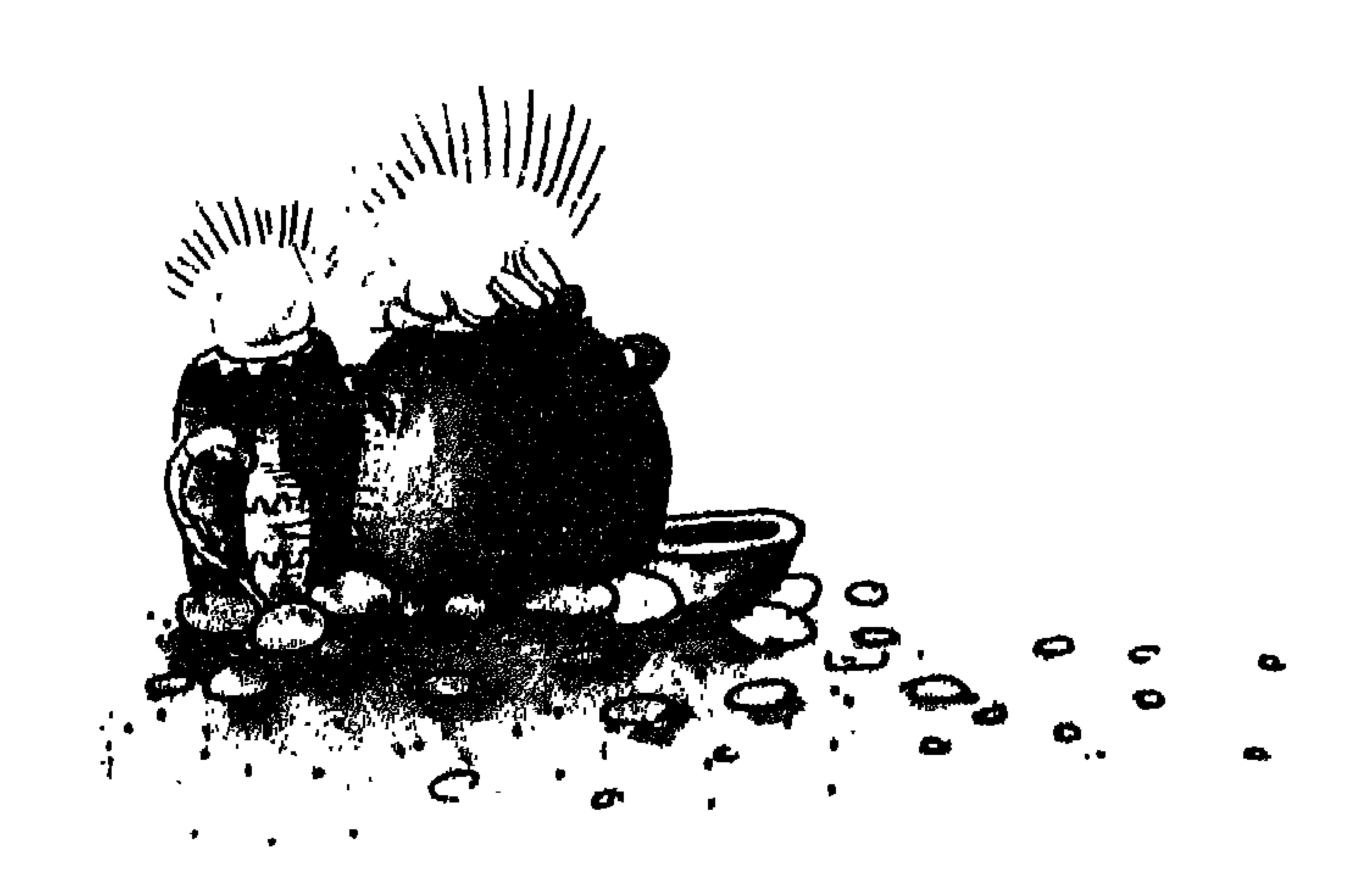
رحب الرجال « بكلود » وسطهم ، ثم بدأ يسرد عليهم خطته التى استعان فيها بأنه كان واحدًا من جيش الأعداء منذ وقت غير بعيد ، وما إن انتهى الرجال من ترتيب أدوارهم حتى أطفئوا المصباح الصغير ، فى حين ازدادت النيران فى القلوب توهجًا وانطلقوا فورًا .

تقدم « كلود » إلى إحدى الدوريات التى كانت تحرس مخزنًا لذخيرة الفرنسيين ، كان « كلود » يدعى المرض ويمثل الألم حتى اقترب من أحد الجنود الواقفين ثم تحدث إليه بالفرنسية حديثًا قصيرًا ساعده بعده الجندى على الدخول إلى الخيمة ، جلس « كلود » وسط الجنود يتحدث معهم ويسألهم عن أحوال الجيش ، ولم يتعرف عليه أحد بعد أن حلق رأسه وقام بإطلاق شاربه ولحيته ولم يتذكر أحد أنه « كلود » الذى انشق ، وهاجم الإمبراطور الفرنسى علانية فأمر بقتله ، وإنما اعتقدوا أنه أحد الجنود الذين أسرهم المصريون ، واستطاع الفرار وخاصة بعد أن سرد لهم « كلود » قصة زائفة عن خداعه لبعض

المصريين ، ثم أخرج من جيبه كيسًا من القماش قال فى شغف : إن به بنا من اليمن مطحونا ومضافًا إليه التوابل الشرقية ذات النكهة المتميزة ، ادعى أنه سرقه من أحد المتاجر ، فأخذ واحد من الجنود الكيس والقى محتوياته داخل غلاية كبيرة وصنع أقداحًا من القهوة وزعها على كل الجنود ، وما هى إلا عدة دقائق حتى راحوا جميعًا فى سبات عميق .

خرج « كلود » من الخيمة ثم أطلق الصفير المتفق عليه ، ومن الظلام برز « عامر » و« أصيل » و« حامد » ومعهم « إسماعيل » وباقى الرجال ليصنعوا طابورًا صامتًا ، يناول كل منهم للآخر صناديق الذخيرة والبارود وقطع السلاح الحديثة حتى تصل نهاية الأمر إلى عربة حامد الخشبية فيضعها عليها ، ثم يدفع العربة حتى يصل إلى فتحة السرداب القريبة من قلب المدينة ، وما هى إلا ساعات حتى فرغ مخزن الأسلحة الخاص بالفرنسيين ، وانتقل إلى قاع السرداب المظلم ، قال « إسماعيل » « لكلود » فى قلق : لقد أصبحت حياتك فى خطر فكل هؤلاء الجنود المخدرين قد تعرفوا عليك وبعد أن يفيقوا ويكتشفوا الخدعة سيقتلونك ، كان يجب أن تقتلهم بعد أن ناموا . نكس « كلود » رأسه فى حزن قائلاً : لا تنسى أنهم أهلى وقومى ، إنهم ينفذون الأوامر رغمًا عنهم ، فمَنْ يريد أن يترك أهله ووطنه ليبحر إلى بلد غريب يقتل الأهالى ويسلبهم ثمار أرضهم وديارهم ؟ ، إن كلاًّ منهم يلعن نابليون فى قرارة نفسه ، قال « إسماعيل » : فليحفظك الله منهم يا ... يا ...يا عبد الله أنا لا أعرف اسمك ولكن كلنا عباد الله .

ابتسم « كلود » فى سعادة ثم قال : « عبد الله » ، فليكن اسمى من اليوم « عبد الله » ، قال « إسماعيل » : حسنًا يا عبد الله لتذهب الآن للاختفاء داخل مخبئكم هذا الذى يوجد تحت الأرض مع « أصيل » و« عامر » و« حامد » ولتحرسوا السلاح حتى يحضر إليكم رسول من السيد « محمد كريم » لتسلموه جزءًا من الأسلحة والبارود ولا تسلموا شيئًا إلا لمن يحمل كلمة السر وهى « إلى حطين » . سمع « كلود » كلمة السر فى دهشة ثم سأل إسماعيل : أليست هذه إحدى مواقعكم الحربية ؟ ابتسم إسماعيل مجيبًا : أجل ، إنها الموقعة التى انتصر فيها صلاح الدين على الصليبيين وردهم على أعقابهم بعد هجومهم على بلادنا ، اتسعت ابتسامة « كلود » ثم قال فى ابتهاج : إذن فإلى حطين .



٢٨

كان « كلود » جالسًا يفكر فى عمق ، وإلى جواره صناديق الذخيرة والبارود يجلس على أحدها « عامر » و« حامد » يتحدثان همسًا ، فى حين وقف « أصيل » خارج السرداب فى انتظار رسول السيد « محمد كريم » وبعد قليل دلف إلى السرداب هامسًا : لقد حضر الرجل ، سأله « كلود » هل قال لك شيئًا ؟ ، أجابه « أصيل » : إنه يقول إلى حطين ، قفز « كلود » مسرعًا وبدأ ينقل مع الأولاد الثلاثة بعض صناديق السلاح التى تسلمها الرسول وعدة رجال أشداء كانوا بصحبته ، فرغ الأربعة من المهمة الشاقة ، قال كلود لاهثًا : انتهت مهمتكم يا أولاد ، لقد أديتم دورًا كبيرًا لا يتناسب وأعماركم الصغيرة ولكنه يتناسب مع حبكم الكبير لبلادكم ، سأله « عامر » فى دهشة : وأنت يا « كلود » ؟ ، أجابه : مازال هناك دور هام ينتظرنى ، عودوا إلى دياركم وقد أعود إليكم ، وإن لم أعد فأبلغوا عائشة أن « عبد الله » مات شهيدًا وهو يحاول تصحيح أقوال التاريخ عما يجرى الآن على هذه الأرض الغالية ، ولم يكن الصبية يوافقونه أول الأمر ، ولكنْ أمام إصراره ودعوه وأنطلق إلى هدفه ، وهو عاقد العزم على الخوض فى الأمر ولو كلفه ذلك حياته كلها .

اتجه « كلود » إلى إحدى الكنائس القديمة حيث مجموعة من العلماء والمهندسين والفنانين والمؤرخين المتبقين مع الحامية لدراسة الإسكندرية بالتفصيل ، وقد اتخذوا أطلال هذه الكنيسة المهجورة مقرًا لهم .

دلف « كلود » إلى حيث اجتمع بعض العلماء وعدد من زملاء كلود ، نظروا إليه فى دهشة ثم قال أحدهم : لقد اعتقدنا أن نابليون قد تخلص منك يا « كلود نيكولا » بعد خطئك الكبير فى حقه . أجابه « كلود » : لقد حمانى المصريون كان كل واحد منكم على استعداد لتسليمى ليقتلنى رجال « نابليون » ، صاح أحدهم : الخائن يستحق القتل ، هتف « كلود » فى انفعال : الخائن هو من يخون كل مبادئ السلام وحقوق الإنسان فى أن يحيا حرًّا فى وطنه ، أنتم الخونة لأنكم تناصرون نابليون الظالم . قال أكبرهم سنًّا : لم نأت إلى هنا كى نحارب يا ولدى فلسنا جنودًا أو محاربين ، إننا علماء نبحث عن الاكتشافات الجديدة فى أى مكان بالأرض ، وهذه الأرض بكر تضج بالعلوم والمواد الجديرة بالبحث ، دخل أحد المترجمين والذى كان مستشرقًا من زملاء كلود ، نظر إلى « كلود » برهة ثم قال فى حقد : مرحبًا بالتلميذ النابه المقرب إلى قلب الأستاذ « جان ميشل دفنتور » ، أنت إذن لازلت حيًّا ، سأله كلود : أين السيد دفنتور ؟ .

أجابه الرجل : لقد رحل إلى القاهرة مع الإمبراطور ، فسأله كلود مرة أخرى : مَنْ إذن المسئول عن الترجمة والدراسات التاريخية التحليلية للأحداث الجارية ؟ أجابه الرجل فى صلف : إنه أنا ، فسأله « كلود » : وهل أنت صادق فيما تدونه عن هذا الشعب ، عن مقاومتهم المستميتة وقضائهم على أعداد كبيرة منا ، وعن سلوكهم الحضارى فى كثير من المواقف ؟ ، أم أنك تنفذ أوامر قادتك وتصفهم بالهمجية والتشتت ، وتكتب ما يريد أن يقرأه الإمبراطور المغرور

ويسمعه للعالم كله ؟ ، أريد أن أرى الدراسات التى سجلتها منذ قدومنا إلى الشواطئ المصرية . صاح الرجل : هذا ليس من حقك ، لم تعد واحدًا من فريق المؤرخين بالحملة ، إنك خائن محكوم عليه بالموت ، ثم صاح فى صوت مرتفع : أيها الجنود ، أيها الحراس ، هلموا لتقبضوا على الخائن .

سمع « كلود » صوت هرولة الجنود بأحذيتهم الثقيلة ، وتأكد أنه سيموت خلال الثوان القادمة ، ولكن فى ذات اللحظة اندلعت النيران بالمكان ، فهرول الجميع إلى الخارج ليجدوا حربًا يشنها الوطنيون بقيادة « محمد كريم » على ثكنات الجنود ، ومراكز تجمع الفرنسيين بكل مكان فى الإسكندرية .

مضت عدة ساعات احتدم فيها القتال وتساقط فيها أفراد من الطرفين ، وقد استمات المصريون فى القتال ببراعة ، ولكن الصدام انتهى بمجرد سقوط السيد « محمد كريم » مرة أخرى ولكن فى يد « كليبر » هذه المرة والذى أبى إلا أن يرسله إلى القاهرة ليحاكم من المجلس العسكرى الفرنسى كى يتخلص من مقاومته تمامًا ، وقاتل « كلود » فى صفوف المصريين ببسالة ، وبعد وقف القتال فر إلى السرداب ليعد العدة مع المصريين لقتال جديد واستنزاف آخر لقوات الفرنسيين .

* * *

٢٩

بعث الفرنسيون بالسيد « محمد كريم » إلى القاهرة ، وانعقد بعد ذلك مجلس لمحاكمته ، وقد أوصى « نابليون » للمجلس بضرورة التخلص من ذلك المقاوم العنيد نهائيًّا ، وعلى هذا حكم عليه القضاة بأن يقتل بالرصاص ، وأن تصادر كل أمواله وأملاكه ، ولكنهم أعطوه الحق فى أن يفتدى نفسه بثلاثين ألف ريال ، ولكن « كريم » ، سخر من المحكمة ومن « نابليون » ولم يقبل أن يفتدى نفسه بماله قائلاً : أما أموالى فلتعلموا أننى ما ادخرتها لأشترى بها رحمتكم وأفتدى بها نفسى من الموت ، ولكننى أعددتها لحربكم وتنغيصكم إذا قدر لى أن أعيش وإذا مت فسيحمل علم الجهاد من بعدى أيد فتية ونفوس مخلصة ستجدون منها الأهوال ، وستخرجون على أيديهم من بلادنا أذلاء مهزومين .

وقد صدق السيد « محمد كريم » فيما قاله ، فقد هب الشعب كله بالإسكندرية والقاهرة وكل مكان فى البلاد - يدافع عن الأرض بقوة وبأس حتى رحل « نابليون بونابرت » عن مصر سرًّا فى أغسطس عام ألف وسبعمائة وتسع وتسعين ولم يمض وقت طويل حتى انحسرت الحملة كلها عن الأرض الثائرة الغامضة التى لا تطيق أن تطأها قدم مستعمر ، فتثور حاملة تاريخها وسر غموضها الكامن فى نفوس أبنائها لترده مدحورًا خائبًا .

أما « عبد الله » أو « كلود » سابقًا ، فقد تزوج من « عائشة »

وعاش وسط المصريين بين « أصيل » و« عامر » و« حامد » كأنه واحد منهم ، ونعم بالعيش على هذه الأرض الرائعة بقية حياته .

وأما السرداب فبعد أن أدى دوره كمخبأ ومخزن فى أيام الحرب ، فقد طواه النسيان بعد أن خرجت الآثار التى كانت به لتضمها المتاحف المصرية ، ومن أراد أن يعرف مكان ذلك السرداب فليسأل أين كان دكان عم حسين البقال والد « حامد » ؟ وأين كان مخزنه الصغير الذى توجد به إحدى فتحات ذلك السرداب ، والذى شهد أحداث هذه القصة ثم يكتشفه ، ولكن ليعلن حينئذ بصدق أنه ليس أول من اكتشفه ، ولكن مكتشفيه الأوائل هم « حامد » و« أصيل » و« عامر » و« عائشة » و« زينب » الصغيرة .



المراجع

– مذكرات نقولا الترك

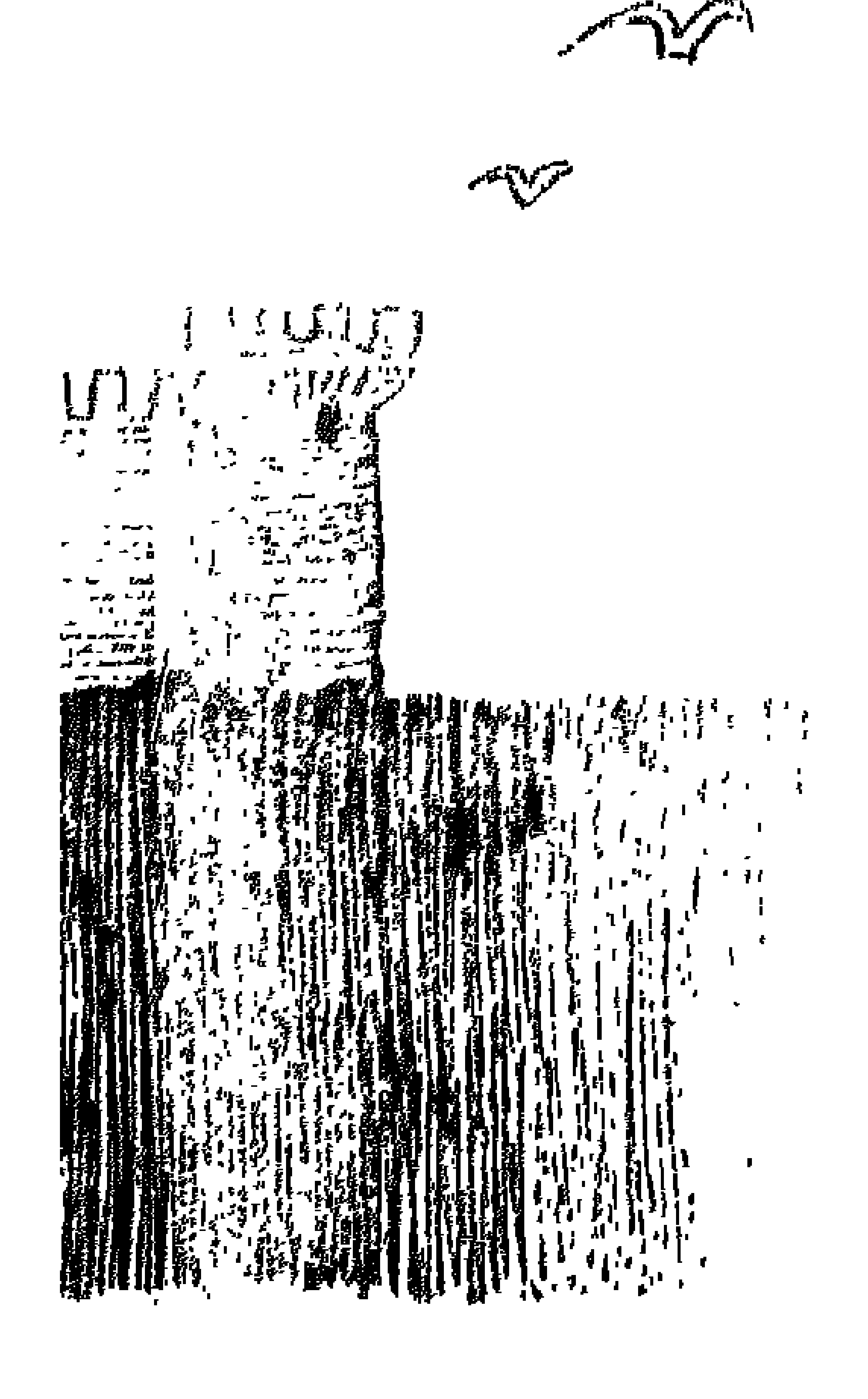
– تاريخ الجبرتى .

– عن كتاب « بونابرت فى مصر » تأليف : ج . كريستوفر هيرولد .

رقم الإيداع		١٩٩٥/١٠١٧٦
الترقيم الدولى	977 - 02 - 5118 - 6	ISBN

٧/٩٥/٧٤

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)



٢١١٢٧٠١





دار المعارف